

خارطة الظهور الشريف

دراسة في روايات الظهور وفقاً لمنهج أهل البيت عليهم السلام
كما عرضها وشرحها الشيخ الأستاذ عبدالحليم الغزي
في برنامج حديث الساعة: حديثٌ زهرانيّ بحسب التوقيت المحلي لمنطقة الظهور



خارطة الظهور الشريف

من الغيبة إلى قيام القائم عليه السلام



خارطة الظهور الشريف

من الغيبة إلى قيام القائم عليه السلام

دراسة في روايات الظهور

وفقاً لمنهج أهل البيت عليهم السلام

كما عرضها وشرحها الشيخ الأستاذ عبدالحليم الغزي في برنامج
«حديث الساعة حديثٌ زهرائيٌّ بحسب التوقيت المحلي لمنطقة الظهور»

﴿بَقِيَتْ لِلَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾

سورة هود - الآية ٨٦

هذا الكتاب دراسة تحريرية مبنية على تحليل الحلقات الإحدى والثلاثين من برنامج «حديث الساعة: حديثٌ زهرائيٌّ بحسب التوقيت المحلي لمنطقة الظهور» للشيخ الأستاذ عبدالحليم الغزي، وقد أُعيد بناء مادتها في سياق كتابي مترابط يحفظ الروايات والأدلة والأفكار التي قامت عليها السلسلة، من غير نقل أسلوب البرنامج الشفهي إلى صفحات الكتاب.

الفهرس

مقدمة الكتاب

17	الباب الأول..معرفة الإمام وبناء شخصية المنتظر
19	الفصل الأول..الغيبة ليست انقطاعًا عن الإمام
22	الفصل الثاني..معرفة الإمام أصل المشروع
24	الفصل الثالث..لماذا أخبر الأئمة بالعلامات؟
26	الفصل الرابع..لا تجعل نفسك ميدان تجربة
28	الفصل الخامس..العقل والتدبر في بناء المنتظر
30	الفصل السادس..الأمل بلا توقيت
32	الفصل السابع..ملامح الشخصية المهدوية

الباب الثاني..عصر الإرهاصات ومنطقة الظهور من التحولات

35	الكبرى إلى العتبة السابقة للعلامات الحتمية
37	الفصل الأول..العلامات لا تبدأ من فراغ
39	الفصل الثاني..منطقة الظهور

41 الفصل الثالث..من الاستقرار إلى الوهن

43 الفصل الرابع..العلو الإسرائيلي

45 الفصل الخامس..سنة 1979 وعقدة المسارات

47 الفصل السادس..العائد الأول في مكة

49 الفصل السابع..العراق بعد 2003

51 الفصل الثامن..سوريا والفتنة الشامية

53 الفصل التاسع..الرايات السود وانهيار الحدود

55 الفصل العاشر..الابتلاء الاجتماعي

الباب الثالث.. العراق في خارطة الظهور

57 من الحكم العباسي الثاني إلى السباق نحو الكوفة

59 الفصل الأول..العراق قلب المشهد

61 الفصل الثاني..الحكم العباسي الثاني

63 الفصل الثالث..اختلاف ووهن مع بقاء السلطان

65 الفصل الرابع..هلاك الفلاني وهدم حائط مسجد الكوفة

67 الفصل الخامس..القتل بين الكوفة والحيرة

69 الفصل السادس..اثنتا عشرة راية مشتبهة

71 الفصل السابع..الشيبباني

73 الفصل الثامن..صاحب البرقع

75 الفصل التاسع..الخراساني والسفياني نحو الكوفة

الباب الرابع..الشام والسفياني من الفتنة الشامية

77 إلى خروج السفياني في رجب

79 الفصل الأول..الشام رحم السفياني

81 الفصل الثاني..فتنة لا يجد الناس منها مخرجًا

83 الفصل الثالث..الجابية ودمشق والترك والروم

85 الفصل الرابع..الأصهب والأبقع والسفياني

87 الفصل الخامس..حريستا والوادي اليابس

89 الفصل السادس..ابن آكلة الأكباد وصورة السفياني

91 الفصل السابع..السفياني من المحتوم

93 الفصل الثامن..رجب وبداية التسارع

95 الفصل التاسع..من دمشق إلى العراق والحجاز

	الباب الخامس..رايات المشرق واليماني والخراساني
97	من «أهدى الرايات» إلى البيعة لصاحب الأمر
99	الفصل الأول..ثلاث رايات في زمن واحد
101	الفصل الثاني..اليماني أهدى الرايات
103	الفصل الثالث..معنى الدعوة إلى صاحبكم
105	الفصل الرابع..اليمن في الخارطة
107	الفصل الخامس..الخراساني والرايات السود
109	الفصل السادس..من رجل قم إلى الخراساني
111	الفصل السابع..الخراساني والسفنياني نحو الكوفة
113	الفصل الثامن.. بنو فاطمة والمنهج الزهرائي اليماني
115	الفصل التاسع..الراية تعرف بوجهتها

	الباب السادس..رجب العلامات وما بعده من اجتماع الرايات
117	الثلاث إلى الصيحة السماوية
119	الفصل الأول..حين تنتقل الخارطة من العقود إلى الأشهر
121	الفصل الثاني..كنظام الخرز

123	الفصل الثالث..شعبان اتساع للحركة
124	الفصل الرابع..الصيحة في شهر رمضان
126	الفصل الخامس..نداء عام باسم القائم
128	الفصل السادس..المعرفة قبل السماع
130	الفصل السابع..آيات شهر رمضان
131	الفصل الثامن..من رجب إلى شهر رمضان
	الباب السابع..الطريق المباشر إلى الظهور
133	من شهر رمضان إلى ذي الحجة والنفس الزكية
135	الفصل الأول..حين تضيق المسافة
137	الفصل الثاني..الحجاز يدخل مركز الخارطة
139	الفصل الثالث..العلامات الخمس
141	الفصل الرابع..النفس الزكية ورسول مكة
143	الفصل الخامس..خمسة عشرة ليلة
145	الفصل السادس..من الرسول إلى صاحب الرسالة
147	الفصل السابع..الخارطة الزمنية الأخيرة

	الباب الثامن..الظهور الشريف في مكة من قيام القائم
149	إلى اجتماع الثلاثمائة والثلاثة عشر والبيعة
151	الفصل الأول..من العلامة إلى صاحبها
153	الفصل الثاني..المحرم وعاشوراء
155	الفصل الثالث..لماذا مكة؟
157	الفصل الرابع..العائد الآخر
159	الفصل الخامس..الثلاثمائة والثلاثة عشر
161	الفصل السادس..البيعة لصاحب الأمر
163	الفصل السابع..بين الركن والمقام
165	الفصل الثامن..الظهور لا ينهي الاختبار
167	الفصل التاسع..جيش السفيناني وخسف البيداء
169	الفصل العاشر..مكة بداية وليست نهاية

	الباب التاسع..من مكة إلى العراق والكوفة خسف البيداء،
171	القادسية، النجف، والبترية
173	الفصل الأول..ما بعد الإعلان ليس نهاية الفتنة

175	الفصل الثاني..العراق يعود إلى مقدمة المشهد
177	الفصل الثالث..القادسية وبداية الفرز
179	الفصل الرابع..مبايعة السفيناني بعد الظهور
181	الفصل الخامس..البترية
183	الفصل السادس..ظهر النجف
185	الفصل السابع..من اثنتي عشرة راية إلى راية واحدة ظاهرة
187	الفصل الثامن..الكوفة مركز المشروع
	الباب العاشر..دولة القائم ومشروع العدل من تثبيت الحكم
189	إلى انقلاب المعرفة وبناء الإنسان
191	الفصل الأول..الظهور بداية المشروع
193	الفصل الثاني..الإمام لا يصلح نظامًا قديمًا فقط
195	الفصل الثالث..العدل بنية الدولة
197	الفصل الرابع..المعرفة أساس العدل
199	الفصل الخامس..العلم والحضارة
201	الفصل السادس..تصحيح الموروث

203	الفصل السابع..القوة في خدمة الحق
205	الفصل الثامن..الدولة العالمية
207	الفصل التاسع..الإنسان يتغير
209	الفصل العاشر..معنى التمهيد بعد ظهور الإمام
211	الخاتمة الكبرى..اعرف إمامك... وعرف بإمامك
213	خلاصة الأمر
217	احفظ نفسك لصاحب هذا الأمر
225	دعاء الختام
226	المصادر والمراجع

مقدمة الكتاب

يقوم هذا الكتاب على دراسة وتحليل المادة التي قدّمها الشيخ الأستاذ عبدالحليم الغزي في إحدى وثلاثين حلقة من برنامج «حديث الساعة: حديثٌ زهرائيٌّ بحسب التوقيت المحلي لمنطقة الظهور»، ولم يكن المقصود نقل الحلقات بترتيبها التلفزيوني أو الاحتفاظ بطبيعة الخطاب الشفهي، بل جمع أفكارها ورواياتها وأدلتها وتطبيقاتها في بناء واحد متصل، بحيث يستطيع القارئ من خلال هذه الصفحات أن يكون صورة واضحة عن المسار الذي تناولته الحلقات كلها، من مقدمات عصر الغيبة إلى العلامات القريبة ثم الظهور الشريف وما بعده

وعلى هذا الأساس يأتي السرد بصوت كتابي مستقل: تُعرض الفكرة في سياقها، ثم يرد دليلها من روايات أهل البيت عليهم السلام كما استُدل بها في محاضرات الشيخ، ثم تتضح دلالتها وصلتها بما قبلها وما بعدها، أما التطبيقات المعاصرة التي قامت عليها الخارطة فتندمج في السياق بوصفها جزءاً من القراءة المعتمدة في هذا الكتاب، مع بقاء النص الروائي متميزاً عن تفسيره وتطبيقه، وبذلك تتحول الحلقات المتفرقة إلى مسار واحد يمكن قراءته من أوله إلى آخره بوصفه كتاباً لا تفريغاً لبرنامج

ليس الحديث عن الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف حديثاً عن مستقبل مجهول فحسب، ولا البحث في علامات ظهوره محاولة لمعرفة ما سيقع غداً بقدر ما هو بحث في موقع المؤمن من إمام زمانه، وفي الطريقة التي ينبغي أن يقرأ بها عصر الغيبة وما يجري فيه من تحولات وفتن وأحداث.

فالعلامات مهما كثرت تفاصيلها وتشعبت رواياتها، لا تنفصل عن صاحبها، والسفنياني واليمني والخراساني والصيحية والنفس الزكية وخسف البيداء ليست عناوين مستقلة عن المشروع المهدوي، وإنما هي أجزاء من خارطة تقود في نهايتها إلى الإمام الحجة بن الحسن صلوات الله وسلامه عليه.

ومن هنا يبدأ الشيخ الأستاذ عبدالحليم الغزي من قاعدة يكررها في خلاصة السلسلة : «اعرف إمامك، وعرف بإمامك»، وهذه العبارة تختصر جانباً واسعاً من تكليف المؤمن في عصر الغيبة، فالمؤمن لا ينتظر مجرد حدث اسمه الظهور، وإنما ينتظر إماماً يعرفه ويرتبط به ويتعلم حديثه وحديث آبائه الطاهرين، ويبنى نفسه ليكون صالحاً لخدمته متى شاء الله تعالى أن يأتي اليوم الموعود.⁽¹⁾

ولهذا لا تكون دراسة العلامات بديلاً عن معرفة الإمام، بل فرعاً منها، ولا تكون متابعة الأحداث السياسية والعسكرية بديلاً عن حديث العترة، بل وسيلة لفهم الواقع حين يُقرأ في ضوء ذلك الحديث، والغاية ليست أن يتحول المؤمن إلى متنبئ بالأحداث، وإنما أن يكون بصيراً بزمانه، قادراً على معرفة الفتنة حين تأتي، وعلى التمييز بين الراية التي تقوده إلى الإمام والراية التي تستعمل اسمه لتقوده إلى غيره.

1 «اعرف إمامك وعرف بإمامك» خلاصة منهجية صاغها الشيخ الأستاذ عبدالحليم الغزي في خاتمة السلسلة، وليست رواية مستقلة منسوبة إلى المعصوم عليه السلام.

«يا أهل الكوفة، أخبركم بما يكون قبل أن يكون، لتكونوا منه على حذر، ولتندروا به من اتعظ واعتبر»⁽²⁾

فالحديث عن المستقبل يحمل وظيفة واضحة: الحذر قبل الفتنة، والمعرفة قبل الحدث، ونقل العلم إلى من يأتي بعدنا، ولهذا نجد في روايات الصيحة تأكيداً على أن الذي يعرف النداء الصادق هو من عرف حديثهم قبل وقوع الحدث.

«يعرفها من كان سمع بها قبل أن تكون»⁽³⁾

من هنا يأخذ هذا الكتاب مساره، سنقرأ العلامات كما جمعها الشيخ في برنامجه، ونضعها في خارطة مترابطة تبدأ من معرفة الإمام ووظيفة المنتظر، ثم تمر بالإرهاصات والعراق والشام والمشرق واليمن، وتدخل سنة العلامات من شهر رجب إلى شهر رمضان وشهر ذي الحجة، ثم تصل إلى مكة والظهور والكوفة ودولة القائم، وفي كل ذلك يبقى السؤال متلازمين: ماذا سيحدث؟ وماذا يفعل المؤمن وهو ينتظر؟

وتتداخل في الخارطة الفكرة مع شواهد الروائية وتطبيقاتها وقواعد فهم النص؛ فلا يفصل السفيناني عن الفتنة الشامية، ولا الخراساني عن حركة المشرق،

2 الشيخ المفيد، الإرشاد؛ من خطبة أمير المؤمنين عليه السلام: «يا أهل الكوفة، أخبركم بما يكون قبل أن يكون، لتكونوا منه على حذر، ولتندروا به من اتعظ واعتبر».

3 النعاني، الغيبة، باب العلامات، الرواية 31 عن هشام بن سالم، عن الإمام الصادق عليه السلام، في الصحيحتين، وفيها: «يعرفها من كان سمع بها قبل أن تكون».

ولا العراق عن الكوفة والرايات المشتبهة، كما لا تُجعل الصبيحة حدثاً صوتياً مجرداً من وظيفة المعرفة السابقة. إنما تشكل الصورة من تراكب هذه العناصر حتى يصبح لكل علامة موقعها ووظيفتها داخل المشروع المهدوي كله.

ولهذا سيعتمد هذا الكتاب في عرضه على الشرح لا على الاختزال، فحين ترد رواية لن يُكتفى بذكرها ثم الانتقال إلى غيرها، بل ستُبين الصلة التي أقامها الشيخ بينها وبين بقية النصوص، وما الذي أراد أن يلفت إليه من خلالها، وكيف وضعها في التسلسل العام للأحداث، وحين ينتقل إلى الواقع المعاصر، سيُعرض تطبيقه كما شرحه هو، بلغة كتابية هادئة ومتصلة، من غير نقل حرارة السجال الشفهي، ومن غير تفريغ الفكرة من مضمونها، والغاية أن يشعر القارئ بأنه يسير في خارطة لها بداية ومسار ونهاية، لا أمام قائمة متفرقة من الأسماء والتواريخ.

وهكذا تتوزع الرحلة على مستويين يسيران معاً، المستوى الأول هو خارطة الأحداث: إرهابات بعيدة، ثم تحولات في العراق والشام والمشرق واليمن والحجاز، ثم سنة تتقارب فيها العلامات حتى تصل إلى مكة، والمستوى الثاني هو خارطة الإنسان المنتظر: معرفة الإمام، وحفظ النفس، وبناء العقل والبصيرة، والاستعداد للخدمة، فإذا انفصل المستوى الأول عن الثاني تحولت العلامات إلى مادة للفضول، وإذا انفصل الثاني عن الأول ضاعت فائدة الأخبار التي أخبر بها أهل البيت عليهم السلام، والكتاب يريد أن يبقي المسارين متصلين من أول صفحة إلى آخرها.

الباب الأول

معرفة الإمام وبناء شخصية المنتظر

قبل أن تبحث عن العلامة ... اعرف صاحبها

الفصل الأول

الغيبة ليست انقطاعاً عن الإمام

طال زمن الغيبة الكبرى حتى أصبح الإنسان يولد ويعيش ويموت وهو لا يرى الإمام الحجة عليه السلام بعينه، وقد يؤدي طول الزمن إلى أن تصبح الغيبة في الوعي العام أقرب إلى فكرة تاريخية منها إلى واقع عقائدي حاصر، لكن الإمام في منهج العترة لا يفقد مقامه لأن أعين الناس لا تصل إليه، إنه إمام زمانه، وحجة الله على خلقه، وعلاقة المؤمن به لا تبدأ يوم الظهور.

«يا سدير، الزم بيتك، وكن حلساً من أحلاسك، واسكن ما سكن
الليل والنهار، فإذا بلغك أن السفيناني قد خرج فارحل إلينا ولو
على رجلك»⁽⁴⁾

ترسم الرواية مرحلتين: مرحلة قبل خروج السفيناني، ومرحلة بعده، قبل العلامة يأتي السكون والتثبيت، وبعد ظهورها يتغير الموقف، ولزوم البيت لا يعني تعطيل الحياة، وإنما عدم تبديد النفس تحت الرايات المشتبهة قبل أن يتضح الطريق الذي رسمته الروايات، إنه سكون عن الاندفاع، لا سكون عن الإيمان، وتريث في الحركة، لا تخلُّ عن المسؤولية.

4 الكليني، الكافي، ج 8، ص 264، ح 383؛ عن سدير الصيرفي، عن الإمام الصادق عليه السلام: «يا سدير، الزم بيتك، وكن حلساً من أحلاسك...»

«أما إني لو أدركت ذلك لاستبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر»⁽⁵⁾

هكذا تصبح النفس نفسها جزءاً من مشروع الانتظار، لا يملك الإنسان أكثر من حياة واحدة، ولذلك لا ينبغي أن يستهلكها في طرق لا يعرف نهايتها بينما صاحب الأمر الذي ينتظره أولى بأن تُحفظ القدرة لخدمته، ومن هنا تتولد قاعدة أساسية: احفظ نفسك لصاحب الأمر، وابنها له قبل أن يأتي اليوم الذي تحتاج فيه إلى تقديمها بين يديه.

ويعود حديث سدير الصيرفي هنا، لا لمجرد التكرار، بل بوصفه مفتاحاً لطبيعة العلاقة بالإمام في الغيبة، فالأمر بلزوم البيت إلى أن يبلغ خبر السفياي لا يرسم حياةً فارغة، وإنما يرسم حدود الحركة قبل وضوح العلامة الفاصلة، الإنسان يعيش ويعمل ويتعلم ويؤدي مسؤولياته، لكنه لا يسلم نفسه لأي مشروع يطلب منه البيعة أو التضحية قبل أن يعرف موقع ذلك المشروع من صاحب الأمر، بهذا المعنى يصبح السكون موقفاً واعياً يحفظ الاتجاه، لا انسحاباً من المجتمع ولا تعطيلًا للقدرة.

وتتصل بهذه الفكرة مباشرة عبارة الإمام الباقر عليه السلام: «أما إني لو أدركت ذلك لاستبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر»، فالاستبقاء هنا ليس مجرد المحافظة على الجسد، بل المحافظة على مجموع ما يملكه الإنسان: عمره، وعقله، ودينه، وطاقته، وخبرته، وقدرته على اتخاذ الموقف، ومن هنا يُنظر إلى زمن الغيبة باعتباره زمن إعداد طويل، فمن ينتظر صاحب الأمر لا

5 النعماني، الغيبة، ص 281 بحسب طبعة أنوار الهدى، ح 50 عن أبي خالد الكابلي، عن الإمام الباقر عليه السلام، وفي آخره: «أما إني لو أدركت ذلك لاستبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر».

يبدأ الاستعداد عند سماع الصيحة أو عند خروج السفيناني، وإنما يعيش قبل ذلك وهو يسأل نفسه: هل ما أفعله اليوم يزيدني قدرة على خدمة الإمام أم يستهلكني في طريق آخر؟

ولهذا فإن الغيبة امتحان للحضور لا للغياب، الإمام غائب عن المشاهدة العامة، لكنه حاضر في ميزان العقيدة والولاء والقرار، والمنتظر الحقيقي هو من يربط اختياراته بهذا الحضور، فيتعلم قبل أن يتحرك، ويتثبت قبل أن يبايع، ويحفظ نفسه من أن تتحول الحماسة إلى وسيلة تستعملها رايات لا يعرف حقيقتها.

الفصل الثاني

معرفة الإمام أصل المشروع

وعند طرح السؤال: ما أهم ما يشتغل عليه المؤمن في زمن الغيبة؟ يعود الجواب إلى معرفة الإمام، وليس المقصود أن يعرف الإنسان اسمه ونسبه وتاريخ ولادته فحسب، بل أن يعرف موقعه في الدين، ومعنى ولايته، وشؤون غيبته وظهوره، وحديث العترة المتعلق به، والطريقة التي يريد أهل البيت من شيعتهم أن يعيشوا بها زمن الغيبة.

«ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن تبارك

وتعالى: الطاعة للإمام بعد معرفته»⁽⁶⁾

الترتيب واضح: المعرفة أولاً، ثم الطاعة، فمن يعرف إمامه يعرف إلى من ينبغي أن تنتهي الرايات، ويعرف لماذا تمدح الروايات رايةً لأنها تدعو «إلى صاحبكم»، ويعرف لماذا لا يكفي النسب ولا الشعار ولا كثرة الجمهور، كل العناوين البشرية تُقاس بموقعها من الإمام، ولا يُقاس الإمام بموقعه منها.

المعرفة المقصودة هنا أوسع بكثير من المعلومات التعريفية، أن تعرف الإمام يعني أن تعرف لماذا هو الحجة، وما معنى إمامته وولايته، وكيف تنتهي إليه الطاعة، وما الذي يميز مقام المعصوم عن كل قيادة بشرية أخرى، ولهذا تأتي

6 الكليني، الكافي، ج1، كتاب الحجة، باب فرض طاعة الأئمة، ح1 عن زرارة، عن الإمام الباقر عليه السلام.

رواية «الطاعة للإمام بعد معرفته» في صميم البناء، فالطاعة لا تسبق المعرفة، لأن الإنسان إذا لم يمتلك ميزاناً واضحاً قد ينقل الطاعة الواجبة للإمام إلى شخصية أو مؤسسة أو راية، ثم يجعل ولاءه السابق مانعاً من الرجوع إلى صاحب الحق.

وتتجلى هذه القاعدة في الروايات المتصلة بالرايات؛ فعندما تُمدح راية اليامي لأنها «تدعو إلى صاحبكم»، فالمعيار هو الإمام، وعندما تنتهي الرايات الخراسانية إلى البيعة، فالمعيار هو الإمام، وعندما تشبه اثنتا عشرة راية، لا يصبح الإمام هو المشتبه، بل تبقى المشكلة في الرايات، لذلك فإن معرفة الإمام ليست باباً تمهيدياً ينتهي مع بداية الحديث عن العلامات، إنها الميزان الذي سيصحب القارئ في كل الأبواب اللاحقة.

ومن هنا نفهم العبارة التي تختصر خلاصة السلسلة: «اعرف إمامك وعرف بإمامك»، فالجزء الأول يضبط قلب الإنسان وعقله، والجزء الثاني يحول المعرفة إلى مسؤولية اجتماعية، إن المشروع المهدوي، وفق هذا الفهم، لا يبنى على انتظار شخص مجهول ثم التعرف إليه عند ظهوره، بل على جماعة تعرف إمامها قبل الظهور وتتهياً نفسياً وعقلياً وعملياً لتسليم الأمر إليه حين يحضر.

الفصل الثالث

لماذا أخبر الأئمة بالعلامات؟

إذا كان الأصل هو معرفة الإمام، فما الحاجة إلى هذا العدد الكبير من الروايات التي تتحدث عن المستقبل؟ الجواب أن خبر المستقبل ليس معلومة للفضول، بل إنذار سابق للفتنة، حين تعرف أن الطريق يحمل خطرًا، تدخل الطريق وأنت مستعد، وحين تحبرك الروايات أن زمنًا سيأتي تشبه فيه الرايات، تعرف منذ الآن أن مجرد رفع شعار أهل البيت لا يكفي.

ومن هنا تُقرأ علامات الظهور بوصفها مدرسة في الحذر والبصيرة، حديث السفيناني يُعلّم المؤمن أن للفتنة سياقًا، وحديث اليماني يضع معيار الدعوة إلى صاحب الأمر، وأخبار الصيحة تعلم أن النداء الصادق قد يتبعه تضليل، وأخبار النفس الزكية تضبط المسافة الأخيرة قبل القيام، المعرفة السابقة تجعل المؤمن يدخل الحدث ومعه ذاكرة من حديث العترة، لا وهو يبدأ من الصفر.

من أكثر الأسئلة التي ترد إلى ذهن المؤمن: لماذا حدثنا أهل البيت عليهم السلام عن وقائع لم تقع في زمان المخاطبين؟ الجواب: بأن الخبر المسبق نفسه لون من ألوان الرعاية، من يعرف أن زمنًا سيأتي تختلط فيه الرايات لا يتعامل مع الشعار الديني على أنه دليل كافٍ، ومن يعرف أن صيحة حق يعقبها نداء مضلل لا ينهار حين يسمع الخطاب المضاد، ومن يعرف أن النفس الزكية تقتل قبل القيام بمدة قصيرة يقرأ ذلك الحدث داخل تسلسل سابق لا كحادثة منفردة.

ولهذا ويأتي الاستشهاد بقول أمير المؤمنين عليه السلام لأهل الكوفة إنه يخبرهم بما يكون «لتكونوا منه على حذر»، كلمة الحذر هنا تنقل الرواية من خانة التنبؤ إلى خانة التربية، الغاية أن تدخل الفتنة ومعك ميزان، لا أن تدخلها ثم تبحث عن الميزان وسط الضجيج، وكلما كانت الفتنة أشد تشابهاً في الشعارات، ازدادت قيمة المعرفة السابقة.

وتظهر الفكرة بأوضح صورة في روايات الصحيحة: الذي يعرف النداء الحق هو «من كان سمع بها قبل أن تكون»، أو من كان يروي حديثهم ويعلم أن هذا الأمر سيقع، فالمعرفة السابقة ليست ترفاً، بل جزء من الحماية، ولهذا يكون نشر الثقافة المهدوية الصحيحة قبل الأحداث عملاً من أعمال التمهيد، لأنها تمنح الناس ذاكرةً يعودون إليها حين يصعب التمييز.

الفصل الرابع

لا تجعل نفسك ميدان تجربة

«والله لو كانت لأحدكم نفسان، يقاتل بواحدة يجرب بها، ثم كانت الأخرى باقية فعمل على ما قد استبان لها، ولكن له نفس واحدة...
فأنتم أحق أن تختاروا لأنفسكم»⁽⁷⁾

ويُبنى على هذه الرواية منهجاً في التعامل مع الدعوات التي تطلب من الإنسان أن يدفع نفسه ودينه قبل أن تتضح له وجهتها، ليس للإنسان عمر احتياطي يجرب به راية ثم يعود بعد الموت ليصحح القرار، لذلك يصبح الثبوت جزءاً من التقوى، ويصبح السؤال قبل الحركة: إلى من تدعو هذه الراجية؟ وما موقع الإمام من مشروعها؟

وتكمل الرواية الحديث عن زيد بن علي بن الحسين الشهيد عليه السلام عند قيامة بالثورة على بني أمية، وأنه لم يدع الناس إلى نفسه، وإنما دعاهم إلى الرضا من آل محمد، ومن هنا يتشكل معيار سيعود في باب اليماني: الراجية الصادقة لا تحبس الناس عند قائدها، بل تقودهم إلى صاحب الحق.⁽⁸⁾

7 الكليني، الكافي، ج8، ص264، ح381؛ رواية عيص بن القاسم عن الإمام الصادق عليه السلام في التحذير من تجربة النفس تحت الرايات.

8 الكليني، الكافي، رواية عيص بن القاسم عن الإمام الصادق عليه السلام، وفيها أن زيدا «لم يدعكم إلى نفسه، إنما دعاكم إلى الرضا من آل محمد».

الرواية التي تتحدث عن النفس الواحدة تضع منهاجاً علمياً مهماً في حياة الإنسان، فالإنسان يستطيع أن يختبر رأياً ثم يغيره، وأن يجرب تجارة ثم يتركها، لكنه لا يستطيع أن يجرب موته تحت راية ثم يعود ليصحح خياره، لذلك تضع هذه الرواية التثبث من الرايات في موضع ديني وأخلاقي مهم جداً: ليس كل تردد جبنًا، وليس كل اندفاع شجاعة، أحيانًا تكون الشجاعة الحقيقية هي أن ترفض أن تدفع نفسك في مشروع لا تعرف نهايته، وأن تصبر حتى يتضح لك إلى من تقود الراية.

ويُستفاد من تنمة رواية زيد بن علي عليه السلام معيارًا مهمًا: زيد لم يكن يدعو إلى نفسه، بل إلى «الرضا من آل محمد»، هذه النقطة ستعود بقوة عند اليماني، فالمعهد الصادق لا يصنع من شخصه مركزًا نهائيًا، ولا يطالب الناس أن يوقفوا عنده إذا حضر صاحب الحق، إنما قيمة المعهد في أنه يقرب الناس من الإمام ويهيئهم للتسليم له.

وبذلك يتحول السؤال من: من هو أقوى قائد؟ أو من يملك جمهورًا أكبر؟ إلى سؤال أدق: إلى أين تنتهي هذه الدعوة؟ هل تحفظ بيعة الإمام في قلب الإنسان أم تزاخمها؟ هل تعد الأتباع ليكونوا أنصارًا لصاحب الأمر أم تجعل ولاءهم النهائي لشخص آخر؟ هذا هو المعنى الذي يجعل حفظ النفس جزءًا من حفظ الدين.

الفصل الخامس

العقل والتدبر في بناء المنتظر

﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾⁽⁹⁾

ولا يُصَوِّر المنتظر إنساناً بسيط التفكير ينتظر أن تُحلَّ الأحداث أمامه؛ بل يصبح العقل والتدبر والتحقيق جزءاً من شخصيته، المعرفة المهدوية تحتاج إلى ربط النصوص وفهم السياق والرجوع إلى مفاتيح العترة عليهم السلام، لا إلى التصديق السريع لكل خبر أو اسم متداول.

والعقل هنا يعمل في الخير: لا يتبع الكثرة لمجرد كثرتها، ولا يجعل الشهرة حجة، ولا يختار النتيجة ثم يبحث لها عن دليل، هذه البصيرة هي التي يحتاج إليها زمن تكثر فيه الرايات المتشابهة والشعارات المتداخلة.

ويحتل العقل مكاناً مركزياً في شخصية المنتظر؛ فأيات التدبر تؤكد أن القرآن لا يريد قارئاً يمر على الألفاظ من غير أن يربط بينها، ومن ثم فإن النصوص المهدوية لا تُفهم بجمع كلمات متشابهة فقط، بل بالنظر في السياق، ومقارنة الروايات، وفهم اللغة، وربط الجزئيات بالمنظومة الأكبر، لذلك فإن العقل المطلوب ليس عقل الجدل المجرد، وإنما عقل يعمل في الخير ويقود صاحبه إلى الثبوت والإنصاف.

9 القرآن الكريم، سورة ص، الآية 29؛ وانظر آيات التدبر في سورة محمد 22-24، والمؤمنون 66-68، والنساء 82.

ومن المفاهيم الأساسية هنا قول الإمام: «العاقل في الخير، الغافل عن الشر»، فالذكاء ليس أن يتقن الإنسان الخداع، ولا أن يملك سرعة في السجال، بل أن يحسن استعمال قدرته العقلية في طلب الحقيقة، ولهذا يحذر الشيخ في منهجه من أن تصبح كثرة المتحدثين أو شهرة الأسماء بديلاً عن التحقيق، في زمن الرايات المشتبهة قد تتشابه اللغة، وقد تتكرر المفردات نفسها، وقد يلبس كل طرف ثوب النصر، عندئذ لا ينقذ المؤمن إلا عقله تدرب قبل الفتنة على السؤال والبحث.

والتدبر هنا لا ينافس الولاية، بل يعمل داخلها، فالمعرفة تبدأ من الكتاب والعترة، ثم يتحرك العقل في ضوء هذه المفاتيح ليفهم الواقع، وكلما ارتفع مستوى المعرفة أصبح المنتظر أقل عرضة لأن تحركه موجة إعلامية، أو ضغط جماهيري، أو حماس لحظي لا يعرف عاقبته.

الفصل السادس

الأمل بلا توقيت

ولا يعني رفض التوقيت إخماد الشوق أو دفع المنتظر إلى برود روحي؛ فالأمل بقرب الفرج يؤدي وظيفة تربوية، يبقى القلب متصلاً بالمشروع، ويمنع اليأس، من غير أن يمنح الإنسان حق تحديد السنة أو اليوم، ويمكن للمؤمن أن يعمل على أساس «ما أسرعه وما أقرببه» وهو مسلم لله إن طال الطريق.

ومن هنا يتوازن الانتظار بين قرب وجداني يحفز العمل وتسليم عقدي يمنع الانهيار، فالتوقيت يربط الإيمان بحساب البشر، أما الانتظار فيربط القلب بالإمام، ولهذا يبقى الدعاء داخل قانون المشيئة والبداء، ويظل المؤمن يتعلم ويعمل ويدعو من غير أن يحاصر المستقبل في جدول صنعه بنفسه.⁽¹⁰⁾

ويجتمع هنا أمران قد يبدوان متعارضين: أن يعيش المؤمن إحساس القرب، وأن يمتنع عن صناعة موعد، القرب هنا حالة روحية وعملية، فكل جيل مأمور بأن ينتظر وأن يدعو وأن يهيئ نفسه، لأن انتظار الفرج يفقد معناه إذا تحول إلى يقين بأن الحدث بعيد، أما التوقيت فهو أن يحول الإنسان الاحتمال إلى سنة أو يوم من عنده، ثم يربط إيمانه بذلك الحساب.

10 الكليني، الكافي، ج2، ص469-470، باب أن الدعاء يرد البلاء والقضاء؛ وفيه: «الدعاء يرد القضاء بعد ما أبرم إبراماً».

ويرتبط هذا المعنى بقانون البداء، فهو يميز بين الميعاد، وبين المحتوم، وبين غير المحتوم، ويجعل زمن الظهور داخل حركة المشيئة الإلهية والدعاء وعمل الأمة، ولذلك يكون الدعاء بتعجيل الفرج عملاً حقيقياً في ثقافة الانتظار، لا مجرد عبارة عاطفية، ويصبح التمهيد نفسه ذا معنى، لأن إصلاح الناس واستعدادهم ليس منفصلاً عن مسار الفرج.

ومن هنا لا يطلب من المنتظر أن يبرد حتى لا يخطئ في التوقيت، ولا أن يوقت حتى يحافظ على الشوق، الطريق الوسط هو أن يعيش «ما أسرعه وما أقرببه» في وجدانه، وأن يبقى في الوقت نفسه مسلماً لله إن طال الطريق، بهذه المعادلة يبقى الأمل مولداً للعمل، ولا يتحول خيبةً عند مرور سنة أو حدث لم يؤد إلى الظهور.

الفصل السابع

ملاحم الشخصية المهدوية

- الشوق والأمل: حضور الإمام في الوجدان، وانتظار الفرج من غير يأس ولا توقيت.
- الصبر والثبات: احتمال طول الطريق والفتن من غير تبديل للميزان عند الضغط.
- العقل والبصيرة: التدبر والتحقيق وعدم الاستسلام للكثرة أو الشهرة.
- الولاء والعمل: تحويل المعرفة إلى طاعة وخدمة وتعريف بالإمام.
- حفظ النفس والقوة: عدم تبديد النفس تحت رايات مشتبهة، وبناء القدرة العلمية والاقتصادية والاجتماعية التي يحتاج إليها مشروع الحق.

«لو أدركت القائم لخدمته أيام حياتي»⁽¹¹⁾

ولا تنحصر الخدمة في عمل واحد، فقد تكون معرفة وتعليماً وتربية، وقد تكون بناء قدرة أو مؤسسة، وقد تكون صدقاً وعدلاً وأداءً للحقوق، وقد تكون امتناعاً عن أن يصبح المؤمن جزءاً من راية لا يعرف إلى أين تقوده، وهكذا تنتقل فكرة الانتظار من حالة زمنية إلى هوية عملية.

11 النعماني، الغيبة، ص 252 بحسب الطبعة المتداولة؛ عن الإمام الصادق عليه السلام: «لو أدركته لخدمته أيام حياتي».

وحين نجمع ملامح الشخصية المهدوية فإنه لا يرسم شخصية أحادية الجانب، فالشوق من دون عقل قد يصبح اندفاعاً، والعقل من دون شوق قد يتحول إلى برودة، والصبر من دون عمل قد يصبح تبريراً للركود، والعمل من دون ولاء قد ينتهي إلى مشروع لا علاقة له بصاحب الأمر، لذلك تتكامل الصفات: شوق يحفظ حرارة العلاقة، وأمل يمنع اليأس، وصبر يثبت الإنسان عند طول الطريق، وعقل يمنحه القدرة على التمييز، وتسليم يجعل المعرفة تنتهي إلى طاعة.

وتلخص هذه الصورة عبارات إيقاعية: شوق شديد، وأمل جديد، وصبر حديد، وفكر رشيد، وتسليم أكيد، المقصود ليس جمال العبارة بقدر ما هو اجتماع عناصر قد تتفرق في الناس، فالمنتظر الذي يهين نفسه لصاحب الأمر يحتاج قلباً حياً وعقلاً حاضراً ونفساً ثابتة وقدرةً نافعة.

ومن هنا يدخل بناء العلم والاقتصاد والتنظيم والمهارة في معنى التمهيد، الخدمة ليست محصورة في صورة عسكرية، ولا تبدأ في يوم الظهور، قد يكون الإنسان ممهداً وهو يربي أبنائه على معرفة الإمام، أو يتقن علماً يحتاجه المجتمع، أو يبني قدرة مالية نظيفة، أو ينشر معرفة صحيحة، أو يحفظ نفسه من فتنة تستنزف عمره، هذه الشخصية هي التي يستطيع هذا الكتاب بعد ذلك أن يصطحبها إلى عالم الإرهاصات من غير أن تتحول متابعة الأحداث عندها إلى لهاث وراء الأخبار.

الباب الثاني

عصر الإرهاصات ومنطقة الظهور

من التحولات الكبرى إلى العتبة السابقة
للعلامات الحتمية

الفصل الأول

العلامات لا تبدأ من فراغ

حين تُقرأ روايات الظهور متفرقة، قد تبدو كل رواية وكأنها تتحدث عن حادثة قائمة بذاتها، فتنة في الشام، وضعف في العراق، ورايات من المشرق، واضطراب في الحجاز، لكن جمع هذه الأخبار يكشف لوحة واحدة، بعضها يشرح بعضاً، وبعض الأحداث تمهد لما يأتي بعدها، حتى نصل إلى مرحلة تتقارب فيها العلامات.

ومن هنا يستعمل مفهوم الإرهاصات: المقدمات البعيدة أو المتوسطة التي تهيئ المسرح الذي ستظهر فيه العلامات الكبرى، فالسفياني لا يخرج في شام هادئة، والخراساني لا يتحرك في مشرق بلا تاريخ، والكوفة لا تصبح مقصداً للرايات من غير تحول سابق في العراق.

لا تقع العلامات الكبرى في مسرح ساكن ثم تتغير الدنيا في لحظة واحدة، قبلها تتراكم ظروف تجعل ظهور الرايات وحركة الجيوش وتبدل السلطات أمراً ممكناً، لهذا يستعمل معنى «الإرهاصات» للدلالة على المقدمات التي قد تمتد زمناً طويلاً، وتختلف عن العلامة القريبة في سرعتها ووضوحها، وقد تكون هذه المقدمات سياسية، أو اجتماعية، أو عسكرية، أو مرتبطة بتحول في ميزان القوة بين الدول.

هذه النظرة تمنع قراءة كل خبر وحده، فتنة الشام تهيئ لسياق السفياني، ووهن الحكم في العراق يهيئ لتعدد القوى وللسباق نحو الكوفة، ومسار

المشرق يهيم لراية الخراساني، والتحويلات في مكة تجعل الحجاز حاضرًا في الخارطة قبل المرحلة الأخيرة، وبدل أن يرى القارئ عشرات الحوادث المنفصلة، يبدأ برؤية شبكة تتقاطع فيها الجغرافيا والزمن.

ومن هنا فإن قيمة الإرهاص ليست أنه يعطي موعدًا، بل أنه يشرح كيف ينتقل العالم من صورة إلى أخرى، فالروايات التي تتحدث عن الرايات والحدود المفتوحة والجيوش تصبح أكثر قابلية للفهم حين نرى دولاً تضعف، وجماعات عابرة للحدود تظهر، وتحالفات تتغير، ومجالات كانت مستقرة تدخل في اضطراب طويل.

الفصل الثاني

منطقة الظهور

تتحرك أكثر الروايات الواردة في هذا الباب في مساحة جغرافية معروفة: العراق، بلاد الشام، الحجاز، اليمن، إيران وما يتصل بخراسان، وفلسطين، العراق يتصل بالكوفة والحيرة وبغداد والنجف، والشام بالسفياي ودمشق والجابية وحرستا والوادي اليابس، والمشرق بالخراساني، واليمن باليمني، والحجاز بمكة والنفس الزكية، وفلسطين بالعلو الإسرائيلي وفق التطبيق الذي يعرضه الشيخ.

وحين تجتمع هذه المساحات في شبكة واحدة، تصبح المنطقة كلها مسرحاً لحركة طويلة، ولهذا تُقرأ التحولات السياسية والعسكرية والاجتماعية فيها بوصفها مقدمات تساعد على فهم كيف تصبح حركة الرايات والجيوش ممكنة في زمن العلامات.

مصطلح «منطقة الظهور» من المفاتيح التي برزت في محاضرات الشيخ عبدالحليم الغزي، وهو لا يقصد به حدود دولة واحدة، بل الرقعة التي تتحرك فيها أكثر الوقائع الروائية السابقة للظهور، ثم تنطلق منها النواة الأولى للحركة المهدوية، وفي عرضه تشمل هذه الرقعة العراق وإيران وتركيا وبلاد الشام وبفروعها، والحجاز واليمن ودول الخليج، ويدخل في تصورها كذلك مصر، مع بقاء مركز الأحداث الأشد وضوحاً في العراق والشام والحجاز والمشرق واليمن.

وحين سمى برنامجه «حديثٌ زهرائي بحسب التوقيت المحلي لمنطقة الظهور» أوضح أن «التوقيت المحلي» استعارة عقائدية، لا ساعةً جغرافية، أي إن الأحداث تُقرأ من داخل مذاق هذه المنطقة وعلاقتها بالروايات، لا من خلال خطوط الطول، هذه العبارة تساعد على فهم طبيعة المشروع كله: نحن أمام قراءة للواقع من زاوية مهدوية، تجمع ما يقع في أكثر من بلد داخل لوحة واحدة.

وهذا يفسر لماذا لا تكفي متابعة بلد واحد، حركة في سوريا قد تتصل لاحقاً بالعراق، وحركة في إيران تنتهي في الروايات نحو الكوفة، وجيش من الشام يتجه إلى الحجاز، واليماني يظهر في الوقت نفسه الذي يتشخص فيه السفيناني والخراساني، الجغرافيا هنا ليست خلفية للأحداث، بل جزء من بنائها.

الفصل الثالث

من الاستقرار إلى الوهن

«إذا اختلف ولد العباس، ووهي سلطانهم، وطمع فيهم من لم يكن
يطمع، وخلعت العرب أعتتها...»⁽¹²⁾

ويبرز هنا «وهي سلطانهم» باعتبارها وصفاً لمرحلة لا تختفي فيها الدولة دفعة واحدة، لكنها تفقد جزءاً من قدرتها على الضبط، عندها يطمع فيها من لم يكن يطمع، وتتحرك قوى كانت أضعف، وتبدأ الأطراف بإظهار أدواتها، ومن هذه الصورة يُقرأ اضطراباً أوسع من مجرد تغيير حكومة، إنه انتقال في بنية القوة نفسها.

وتبرز أهمية عبارة «وهي سلطانهم» لأنها تصف حالة وسطى شديدة الأهمية: السلطان لم يختف تماماً، لكنه لم يعد بالقوة التي تمنع الآخرين من الطمع فيه، وهذه الحالة تختلف عن سقوط الدولة الكامل، فقد تبقى المؤسسات والعناوين والواجهات، بينما تتوزع القدرة الحقيقية بين أحزاب وقوى مسلحة ومصالح خارجية ومراكز نفوذ متعددة.

ويقرأ الشيخ كذلك عبارة «وخلعت العرب أعتتها» بوصفها صورة

12 النعاني، الغيبة، طبعة أنوار الهدى، قم المقدسة، ص178، الحديث 42؛ عن يعقوب بن السراج، عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا اختلف ولد العباس ووهي سلطانهم...، وخلعت العرب أعتتها...».

لتحرر قوى كانت مكبوحة أو محكومة بقيود الدولة، حين تضعف القبضة تتكاثر المبادرات والصراعات، ويظهر أصحاب «الصياصي» بما عندهم من أدوات قوة، وهذا المعنى هو الذي يجعل مرحلة الوهن ممهدة لعالم الرايات، فالحركة التي لم تكن قادرة على الظهور في زمن السلطة المركزية القوية تصبح أكثر قدرة على فرض نفسها.

ويُستحضر أيضًا سنة المداولة القرآنية، فالقوة لا تثبت لجهة إلى الأبد، دولة قوية قد تدخل طور الضعف، وقوة هامشية قد تصعد إذا تغيرت شروط العلم والاقتصاد والتحالف والسلاح، ومن هنا لا تُقرأ الخارطة باعتبار الموجود السياسي قدرًا نهائيًا، بل مشهدًا متحركًا تمهد تحولاته لما بعده.

والذي يمنح وصف الوهن أهميته في هذه الخارطة أنه يفسر كيف يمكن أن يبقى اسم السلطة حاضرًا بينما تتغير قدرتها الفعلية على إدارة المجال الذي تحكمه، فحين يضعف المركز، لا تبقى آثار الضعف محصورة في مؤسسة الحكم، بل تمتد إلى الأطراف والقوى المسلحة والاقتصاد وحركة الشارع، ويصبح كل طرف أكثر جرأة على اختبار حدود الدولة، ومن هنا تُفهم الرواية بوصفها وصفًا لمرحلة انتقالية: لم ينته السلطان بعد، لكنه لم يعد قادرًا على فرض إيقاع واحد على الجميع، وهذا بالضبط هو المناخ الذي يسمح لتعدد الرايات بأن يتحول من احتمال نظري إلى واقع قابل للحركة.

الفصل الرابع

العلو الإسرائيلي

ويحتل العلو الإسرائيلي موقعاً مركزياً في البيئة السابقة للظهور؛ إذ يربطه الشيخ بآيات سورة الإسراء التي تتحدث عن إفساد بني إسرائيل وعلوهم، وفي قراءته للتاريخ الحديث يرى أن قيام دولة إسرائيل سنة 1948 ونمو قوتها العسكرية والتقنية والسياسية يمثلان مرحلة من هذا العلو.⁽¹³⁾

والعلو عنده لا يقتصر على الاحتلال العسكري المباشر، فالدولة الحديثة تستطيع أن تمتلك نفوذاً واسعاً عن طريق الاقتصاد والتقنية والاستخبارات والتحالفات والتأثير في القرار، ومن هنا تصبح دراسة إسرائيل جزءاً من فهم ميزان القوة الذي سبق الظهور، وفي الوقت نفسه درساً في ضرورة أن يبني المؤمنون العلم والقدرة بدل الاكتفاء بالشعارات.

ويُفرد الشيخ للعلو الإسرائيلي مساحة واسعة، فلا يراه حادثة جانبية في المنطقة، بل عنصراً من عناصر ميزان القوة السابق للظهور، ويعود إلى آيات سورة الإسراء التي تتحدث عن إفساد بني إسرائيل وعلوهم، ثم يقرأ التاريخ الحديث على أساس أن تجمع اليهود في فلسطين وقيام دولة إسرائيل سنة 1948م أدخلوا المنطقة في طور جديد يختلف عن قرون الشتات والضعف السياسي.

13 القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآيات 4-7، ربط العلو الإسرائيلي المعاصر بهذه الآيات هو من شرح الشيخ الأستاذ عبدالحليم الغزي في السلسلة.

وفي شرح الشيخ لا يعني «العلو» مجرد السيطرة على أرض، العلو الحديث يتجسد في شبكة من عناصر القوة: علم وتكنولوجيا، اقتصاد، جهاز عسكري، استخبارات، علاقات دولية، وقدرة على التأثير في حسابات الدول المحيطة، ومن هنا يتحول الحديث من وصف خصم إلى درس في سنن القوة، فالخطاب والشعار لا يكفيان لمواجهة من بنى تفوقه على المعرفة والتنظيم.

ولهذا تتصل بين هذا الباب وبين آية الإعداد: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة»، فالقوة في العصر الحديث تبدأ من المعلومة الصحيحة، ثم العلم الذي ينتج التكنولوجيا، ثم الاقتصاد القادر على تمويلها، ثم القوة العسكرية والسياسية، بهذه الصلة يصبح بحث العلو الإسرائيلي جزءاً من بناء وعي المنتظر، لا مجرد سرد سياسي.

الفصل الخامس

سنة 1979 وعقدة المسارات

وتحتل سنة 1979 موقعاً مهماً في تتبع الإرهابيات، ففي إيران انتصرت الثورة وسقط حكم الشاه، وفي العراق وصل صدام حسين إلى رئاسة الدولة، وفي مكة وقعت حادثة المسجد الحرام وظهرت دعوى مهدوية انتهت بمقتل محمد بن عبدالله القحطاني، وقد فتح كل واحد من هذه الأحداث مساراً استمر أثره عقوداً.

في المسار الإيراني يستند إلى رواية قوم يخرجون من المشرق يطلبون الحق ثم تنتهي حركتهم إلى صاحب الأمر، ويربطها بالثورة الإيرانية بوصفها بداية حركة مشرقية طويلة.⁽¹⁴⁾

كما يستشهد برواية تتحدث عن رجل من أهل قم يجتمع معه قوم كزبر الحديد، ويطبقها على الإمام الخميني والبيئة الثورية المحيطة به.⁽¹⁵⁾

ويُستعمل هنا فكرة «سنوات العقد» لشرح أن بعض السنوات لا تكون مهمة بسبب حدث واحد، بل لأنها تجمع عدة تحولات تتفرع منها مسارات تستمر لعقود، وسنة 1979 عنده نموذج بارز: انتصرت الثورة الإيرانية،

14 النعماني، الغيبة، طبعة أنوار الهدى، قم المقدسة، ص 281، الحديث 50؛ عن أبي خالد الكابلي، عن الإمام الباقر عليه السلام، في قوم يخرجون بالمشرق ويطلبون الحق.

15 المجلسي، بحار الأنوار، ج 57، ص 216، ح 37؛ عن الإمام الكاظم عليه السلام: «رجل من أهل قم يدعو الناس إلى الحق، يجتمع معه قوم كزبر الحديد...».

ووصل صدام حسين إلى رئاسة العراق، ووقعت في أواخر السنة حادثة جهيان والقحطاني في المسجد الحرام، ودخل الاتحاد السوفيتي أفغانستان، كما كانت المنطقة تعيش تحولات سياسية ودينية أوسع، هذه الأحداث لم تنته آثارها بانتهاء السنة، بل أعادت تشكيل المشرق والعراق والحجاز وموازن المنطقة.

المسار الإيراني يتصل عنده برواية قوم يخرجون من المشرق «يطلبون الحق»، ثم برواية «رجل من أهل قم يدعو الناس إلى الحق»، وتُطبَّق الأولى على الحركة التي انتهت بالثورة، والثانية على الإمام الخميني وأنصاره الذين تصفهم الرواية بكزبر الحديد، والمهم في الخارطة أن الثورة ليست عنده هي راية الخراساني نفسها، بل بداية مسار شرقي طويل يمضي عبر تحولات وامتحانات حتى مرحلة العلامات القريبة.

وفي السنة نفسها يظهر خط مكة عبر العائد الأول، وخط العراق عبر صعود صدام، فتلتقي ثلاثة أقاليم ستبقى حاضرة في الكتاب: المشرق، والحجاز، والعراق، من هنا نفهم لماذا ولا يراد هنا التعامل مع 1979 كتاريخ منفرد، بل كعقدة تتفرع منها خطوط تلتقي لاحقاً في خارطة واحدة.

الفصل السادس

العائد الأول في مكة

في أواخر سنة 1979 دخلت جماعة جهيمان العتيبي المسجد الحرام وبايعت محمد بن عبد الله القحطاني على أنه المهدي، وتُقارن هذه الواقعة بخبر يذكر «عائداً بمكة يُقتل»، ثم عائداً آخر يرتبط بجيش الخسف . ويقول بأن العائد الأول يقع على القحطاني، والعائد الآخر على الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.⁽¹⁶⁾

بهذا تصبح مكة حاضرة في الخارطة قبل الظهور المباشر بزمان، وتدخل حادثة الحرم في الذاكرة المهدوية بوصفها إرهاباً ضمن المقدمات السابقة للظهور، لا باعتبارها نهاية الطريق.

الخبر الذي يذكر عائداً بمكة يُقتل، ثم تمضي «برهة من دهرهم»، ثم يعود عائداً آخر يرتبط بجيش الخسف، يكتسب هنا أهمية لأنه يضع حدثين في مكة داخل مسار واحد، وهو انطباق العائد الأول على محمد بن عبد الله القحطاني الذي بويع في المسجد الحرام أواخر سنة 1979، بينما كان جهيمان العتيبي قائد الجماعة، ثم يقرأ العائد الآخر على الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

16 نعيم بن حماد، كتاب الفتن، مكتبة الصفا، القاهرة، 2003م، ص197، الباب 41، الحديث 889؛ خبر العائد بمكة ثم العائد الآخر و«جيش الخسف»، بحسب البيانات التي عرضها الشيخ.

وتبرز أهمية عبارة «برهة من دهرهم»، فيفهم منها أن الفاصل ليس رقمًا محددًا يمكن تحويله إلى موعد، لكنه يسمح بتصور استمرار جيل بشري بين الواقعتين، ولذلك يضم هذا النص إلى رواية المشرقيين التي يقول فيها الإمام الباقر عليه السلام: «أما إني لو أدركت ذلك لاستبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر»، اجتماع الفكرتين يبقّي احتمال القرب حيًّا من غير تحويله إلى حساب.

وظيفة العائد الأول في الكتاب إذن مزدوجة: فهو يجعل مكة داخلية في الإرهاصات منذ وقت مبكر، ويعلم القارئ في الوقت نفسه أن التشابه المهدوي في المكان والشعار لا يعني بلوغ الظهور، فقد وقعت دعوى مهدوية في الحرم، لكنها لم تكن هي النهاية، وسيعود الحجاز لاحقًا في سياق مختلف تمامًا، حين تتكامل العلامات الأخرى.

الفصل السابع

العراق بعد 2003

المسار العراقي ينتقل من صعود صدام حسين والحروب والحصار إلى سقوط النظام سنة 2003، ثم إلى صورة سياسية وأمنية مختلفة جذريًا، تعددت القوى والأحزاب والجماعات المسلحة والنفوذ الإقليمي والدولي، وأصبحت السلطة موزعة بين أكثر من مركز تأثير.

ويمثل هذا الانتقال جزءًا أساسيًا من البيئة السابقة للظهور، لأن الروايات التي سيعالجها لاحقًا تتحدث عن عراق تتعدد فيه الرايات ويضعف فيه السلطان وتتقاطع فيه القوى، كما يربط اتساع زيارة الأربعين بعد سقوط النظام بروايات تتحدث عن السير إلى قبر الحسين عليه السلام من الآفاق واتساع العمران حوله.⁽¹⁷⁾

سقوط نظام صدام حسين سنة 2003 يمثل انتقالًا من نمط سلطة شديدة المركزية إلى مشهد تتوزع فيه القوة، لم يعد العراق محكومًا بقبضة واحدة كما في العقود السابقة، ظهرت أحزاب متعددة، وقوى مسلحة، وتداخلات إقليمية ودولية، وصارت الدولة قائمة مع تعدد مراكز التأثير داخلها وحولها، وهذه الصورة هي التي تسمح له بربط الواقع اللاحق بروايات الوهن والاختلاف وتعدد الرايات.

17 المجلسي، بحار الأنوار، ج 41، ص 287، الحديث 9؛ عن الإمام الرضا عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام، في تشييد القصور حول قبر الإمام الحسين عليه السلام والسير إليه من الآفاق.

ومن العلامات الاجتماعية والدينية التي يربطها بهذا التحول اتساع زيارة الأربعين بعد سقوط النظام، فالملايين صاروا يسIRON إلى قبر الإمام الحسين عليه السلام من جهات متعددة، واتسع العمران والخدمات حول الطريق والمرقد، ويُقرأ في ذلك تقاطع مع روايات تتحدث عن السير من الآفاق إلى قبر الحسين عليه السلام وعن العمران حوله، فيضع الزيارة ضمن ملامح التحول العراقي السابق للمرحلة الأخيرة.

لكن الأهم في هذا المسار أن العراق بعد 2003 لا يُقرأ منفردًا، هو البيئة التي ستظهر فيها لاحقًا عناوين «الحكم العباسي الثاني» في الاصطلاح المعتمد هنا، والفلائي، وهدم حائط مسجد الكوفة، والرايات المشتبهة، والشيصباني، ثم دخول السفيناني والخراساني، أي إن 2003 يفتح بابًا، ولا يغلق القصة.

الفصل الثامن

سوريا والفتنة الشامية

«لا يظهر القائم حتى يشمل الناس بالشام فتنة يطلبون المخرج منها فلا يجدونه»⁽¹⁸⁾

وتُقرأ أحداث سوريا منذ سنة 2011 ضمن هذه الفتنة الممتدة، فالحدث لم يبق احتجاجاً محلياً، بل تحول إلى صراع متعدد الأطراف والتدخلات، ويستشهد الشيخ أيضاً بخبر «فتنة كان أولها لعب الصبيان».⁽¹⁹⁾

ومن رحم هذه الفتنة ستخرج لاحقاً الرايات الثلاث في الشام، ويظهر السفيني، وهكذا لا تكون الحرب السورية في تسلسل الخارطة قصة منفصلة، بل جزءاً من المسرح الذي يقود إلى مرحلة أكثر قرباً من العلامات.

وعند الاستشهاد بحديث «فتنة بالشام يطلبون المخرج منها فلا يجدونه» فإنه يركز على صفة الاستمرار، الفتنة ليست معركة واحدة ولا نظاماً واحداً، قد تتغير الحكومات، وتظهر فصائل ثم تختفي، وتبديل التحالفات، ويبقى أصل الاضطراب قائماً، ولذلك قرأ ما بدأ في سوريا

18 النعماني، الغيبة، ص 188، الحديث 65؛ عن جابر الجعفي، عن الإمام الباقر عليه السلام: «لا يظهر القائم حتى يشمل الناس بالشام فتنة...»

19 نعم بن حماد، كتاب الفتن، ص 203، الباب 43، الحديث 925؛ الخبر: «تكون فتنة كان أولها لعب الصبيان...»، بحسب البيانات التي اعتمدها الشيخ.

سنة 2011 بوصفه دخولاً في مرحلة طويلة لا تقاس بنتيجة جولة عسكرية أو سياسية واحدة.

ويضم الشيخ إلى ذلك عناصر أخرى من الروايات: الجابية، ومسجد دمشق، وحركة الترك، وهرج الروم، ثم رايات الأصهب والأبقع والسفياني، هذا الترتيب يجعل الفتنة الشامية رحماً لما بعدها، فهي لا تُدرس لأنها وحدها علامة النهاية، بل لأنها البيئة التي تراكمت فيها العناصر حتى تشخص الرايات الثلاث.

ومن هنا أيضاً لا يكفي تغير وجه السلطة في دمشق لإعلان اكتمال الصورة؛ فالصورة لا تكتمل إلا بمجموعة أوصاف متشابكة، ولذلك يظل النظر متجهاً إلى ما سيجري في الجغرافيا الشامية كلها: دمشق وريفها، والجابية، وحريستا، والوادي اليابس، وحضور القوى التركية والغربية، إلى أن يصل المسار إلى السفياني.

ولهذا لا تُحتزل الفتنة الشامية في خبر سياسي يمكن إغلاقه بتغيير رئيس أو حكومة؛ فالمعيار هو اكتمال الصورة التي رسمتها الروايات: استمرار الاضطراب، وتداخل القوى، ثم ظهور العناوين المكانية والعسكرية التي تمهد للرايات الثلاث، فالمشهد السوري يظل مفتوحاً ما دامت حلقاته لم تتصل بما بعدها، ومن ثم يتابع القارئ الشام لا من زاوية الانتصار المؤقت لهذا الطرف أو ذاك، بل من زاوية السؤال عن موقع الحدث داخل السلسلة التي تنتهي إلى السفياني ثم إلى حركة الظهور.

الفصل التاسع

الرايات السود وانهايار الحدود

مع ضعف الدولة في العراق وسوريا ظهرت جماعات تحمل رايات سوداً، ورُبِطت بعض الأخبار المذمومة بهذه الجماعات كتنظيمات القاعدة والنصرة وداعش.⁽²⁰⁾ وفي الوقت نفسه يجري التفريق بين هذه الرايات وبين الرايات الخراسانية التي تتحرك نحو الكوفة وتنتهي إلى البيعة لصاحب الأمر.⁽²¹⁾

إن انهيار الحدود القديمة وظهور قوى عابرة للدول يوضح كيف يمكن أن يصبح عالم الرايات والجيش الذي تصفه الروايات قابلاً للتصور، فالإرهاصات لا تعني أن العلامة وقعت، لكنها تعني أن المسرح الذي تتحرك فوقه العلامات أصبح أكثر استعداداً لها.

أظهرت الحروب في العراق وسوريا أن الراية قد تتحرك خارج مفهوم الدولة التقليدية، جماعات مثل القاعدة والنصرة وداعش استطاعت أن تعمل عبر الحدود وأن ترفع رايات سوداء وأن تسيطر على مساحات من الأرض، فصار عالم الروايات الذي يتحدث عن رايات وجيوش عابرة للمناطق أكثر

20 نعيم بن حماد، كتاب الفتن، ص 124، الحديث 558؛ النص في الرايات السود بحسب البيانات التي ذكرها الشيخ، تطبيقه على جماعات معاصرة من شرح الشيخ في السلسلة.

21 الطوسي، الغيبة؛ عن جابر الجعفي، عن الإمام الباقر عليه السلام: «تنزل الرايات السود التي تخرج من خراسان إلى الكوفة، فإذا ظهر المهدي عليه السلام بعثت إليه بالبيعة».

قابلية للتصور المعاصر، وفي ضوء ذلك تُقرأ بعض الأخبار المذمومة عن الرايات السود في سياق هذه الجماعات.

لكن اللون وحده لا يصنع هوية الراية، هذه قاعدة مهمة لأن الروايات تتحدث أيضًا عن رايات سود تخرج من خراسان وتنزل الكوفة ثم تبعث إلى الإمام بالبيعة، ولذلك يجري التفريق بين الرايات السود المذمومة المرتبطة بالحركات الإرهابية، وبين الرايات الخراسانية التي تتميز بالمسار والوجهة، العبرة ليست بالقماش، بل بمنهج الحركة وما تنتهي إليه.

وانهيار بعض الحدود أو ضعفها يؤدي وظيفة أخرى في الخارطة: يهيئ مجالاً لحركة قوات من الشام إلى العراق، ومن المشرق إلى الكوفة، ومن الشام إلى الحجاز، فالإرهاص هنا ليس مجرد اسم للجماعة، بل تغير في شكل المجال السياسي نفسه.

وتتضح هنا فائدة الجمع بين الروايات والواقع: الروايات أعطت صورة لعالم تتحرك فيه رايات من أقاليم مختلفة، والواقع الحديث أظهر أن الحدود السياسية ليست دائمًا حاجزًا يمنع الجماعات والجيش من الانتقال، ولذلك تُستخدم هذه التحولات لفهم قابلية المشهد الروائي للتحقق، لا لمجرد مطابقة لون براية، فالراية تُعرف بسياقها ووجهتها وصلتها ببقية العلامات، وما لم تجتمع هذه العناصر يبقى التشابه الجزئي عاجزًا عن حمل المعنى الكامل الذي تصفه الروايات.

الفصل العاشر

الابتلاء الاجتماعي

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۚ
وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (22)

وترتبط صورة الاضطراب السياسي والعسكري بآثارها على الناس: الخوف، وضيق الرزق، ونقص الأموال والأنفس، وتبدل الثقة واليقين، فالفتنة لا يعيشها الناس كنشرة أخبار، بل كضغط على حياتهم ودينهم وعلاقتهم بالمؤسسات والقادة، ولهذا تعود الحاجة إلى معرفة الإمام كلما ازدادت المتغيرات.

ولا يراد هنا أن يبقى البحث في مستوى الخرائط العسكرية، لأن الفتن الكبرى تُعاش داخل البيوت والأسواق والنفوس، الخوف لا يكون خبراً على الشاشة حين يصبح الإنسان قلقاً على أمنه وأهله، والجوع ونقص الأموال يظهران في الأسعار والبطالة وتعطل المصالح، ونقص الأنفس يتحول إلى فقد وهجرة وجرح اجتماعي طويل، لذلك تستحضر آية الابتلاء ليتبين أن التحولات السياسية لها وجه إنساني مباشر.

وفي مثل هذه البيئة يمكن أن يهتز اليقين، فالإنسان الذي كان هادئاً في زمن الاستقرار قد يتغير تحت الضغط، وقد يبحث عن أي قائد يعدّه بالأمن،

22 القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 155.

أو ينجذب إلى خطاب متطرف لأنه يعطيه تفسيراً سريعاً للفوضى، وهنا تعود أهمية الباب الأول: معرفة الإمام والعقل والتثبت ليست دروساً نظرية، بل أدوات بقاء في زمن يضغط على الدين والنفس معاً.

ولهذا فالمطلوب من المنتظر أن يبني قدرته قبل اشتداد الابتلاء: أسرة مترابطة، ووعي ديني، وقدرة اقتصادية قدر الإمكان، ومعرفة بالأحداث من غير استسلام لها، فكلما اتسعت الفتنة صار الإنسان أحوج إلى مركز ثابت يعود إليه، وفي هذا الكتاب ذلك المركز هو الإمام وحديث العترة.

والامتحان الاجتماعي هو الوجه الذي يلامس كل إنسان من هذه الخارطة، قد لا يكون المرء قائدًا عسكريًا ولا صاحب قرار سياسي، لكنه يعيش آثار الخوف والغلاء واضطراب الثقة وتغير العلاقات، وفي مثل هذا المناخ تظهر قيمة البناء السابق: من رسخت معرفته بإمامه لا يجعل كل أزمة سببًا لتغيير ولائه، ومن تعود التثبت لا يبيع يقينه لأول خطاب يعده بالخلاص، وهكذا نعود من الجغرافيا إلى الإنسان، فالخريطة الخارجية لا تكتمل من دون خريطة داخلية تحفظ القلب والعقل حين تضطرب الأرض من حولهما.

الباب الثالث

العراق في خارطة الظهور

من الحكم العباسي الثاني
إلى السباق نحو الكوفة

الفصل الأول

العراق قلب المشهد

يحتل العراق موقعًا بالغ الأهمية في هذه الخارطة، فالكوفة وبغداد والنجف والحيرة ليست أسماء عابرة، بل مسرح لسلسلة من الأحداث التي تسبق السفيناني وتتصل بالخراساني واليماني، تبدأ الصورة بحالة داخلية من الاختلاف والوهن وتعدد القوى، ثم تتحول الكوفة إلى مقصد لقوتين تتحركان من جهتين مختلفتين.

إذا تتبعنا الروايات الواردة في أبواب العراق نلاحظ أن العراق لا يظهر في موضع واحد فقط، بل يعود مرارًا قبل الظهور وبعده، الكوفة والحيرة وبغداد والنجف وكربلاء تشكل عقدًا متصلة، اختلاف في الحكم، هدم في مسجد الكوفة، قتل بين الكوفة والحيرة، رايات مشتبهة، شخصية تخرج من أرض كوفان، ثم سباق إقليمي نحو الكوفة، وبعد الظهور يعود العراق مرة أخرى ليكون مسرحًا للفرز والمواجهة وبناء الدولة.

هذه الكثافة تجعل فهم العراق شرطًا لفهم بقية الخارطة، فالسفيناني لا يبقى في الشام، والخراساني لا يبقى في المشرق؛ كلاهما يتحرك نحو الكوفة، والرايات التي تشبه داخل العراق تشرح لماذا لا يكفي الانتماء الشيعي أو الشعار الديني لتحديد راية الحق، ومن هنا يصبح العراق منطقة انتقال من إرهابات داخلية طويلة إلى احتكاك مباشر بين القوى الإقليمية.

ولذلك يُعرض المشهد العراقي في صورة متدرجة: دولة ووهن، ثم اختلاف وتشتت، ثم ظهور قوى محلية، ثم شخصيات وروايات محددة،

ثم دخول السفيناني والخراساني، هذه الحركة هي التي تحفظ للفصل معناه، فالحديث ليس تجميع أسماء عراقية، بل شرح كيف يصبح العراق نقطة التقاء الخارطة.

وتكرار العراق في الروايات لا يعني أن كل حادثة عراقية علامة، وإنما يعني أن فهم البنية العراقية ضروري لفهم انتقال الأحداث من مرحلة الإرهاص إلى مرحلة الرايات، فتقرأ الكوفة باعتبارها نقطة التقاء: إليها تنجّه حركة الخراساني، ونحوها يمتد السفيناني، وفي محيطها تظهر قبل ذلك صور من الانقسام والاشتباه، لذلك فإن ما يجري في العراق لا يكتسب دلالاته من شدته وحدها، بل من موقعه في تسلسل أوسع تتقاطع فيه حركة الداخل مع ضغط الخارج حتى تصبح الكوفة مركزاً للسباق بين مشروعين متعارضين.

الفصل الثاني

الحكم العباسي الثاني

«لا بد أن يملك بنو العباس، فإذا ملكوا واختلفوا وتشتت أمرهم، خرج عليهم الخراساني والسفياي، هذا من المشرق وهذا من المغرب، يستبقان إلى الكوفة كفرسي رهان»⁽²³⁾

وتتحدث الرواية، وفق هذا التطبيق، عن حكم يقع قريباً من زمن السفياي والخراساني؛ ولذلك يستعمل الشيخ تعبير «الحكم العباسي الثاني» ويطبقه على البنية السياسية العراقية التي تشكلت بعد 2003، ولا يكون الحكم في استقرار دائم، بل يدخل في اختلاف وتشتت ثم وهن.

وعند قراءة رواية «لا بد أن يملك بنو العباس» فإنه لا يحصرها في الدولة العباسية التاريخية، لأن تنمة الرواية تربط اختلافهم مباشرة بخروج الخراساني والسفياي واستبقاهما إلى الكوفة، ومن هنا يصوغ اصطلاح «الحكم العباسي الثاني» ليصف به البنية السياسية التي قامت في العراق بعد 2003، بحسب قراءته لسياق الروايات.

المقصود بالحكم هنا ليس عودة الأسرة العباسية باسمها، بل نمط حكم تُقرأ دلالاته هنا ضمن عنوان الرواية من خلال موقعه الزمني والجغرافي: حكم

23 النعماني، الغيبة، ص 267، الحديث 18؛ عن أبي بكر الحضرمي، عن الإمام الباقر عليه السلام: «لا بد أن يملك بنو العباس... خرج عليهم الخراساني والسفياي... يستبقان إلى الكوفة كفرسي رهان».

في العراق قائم قبل السفيناني، يدخل في الاختلاف والتشتت، وتتصل نهايته بقدم قوتين من المشرق والشام، ولهذا لا تكمن أهمية المصطلح في الاسم وحده، بل في الوظيفة التي يؤديها داخل التسلسل.

وحين يربط هذه الصورة بالواقع العراقي يركز على تعدد القوى داخل النظام، وعلى التأثير الإيراني في جانب منه، وعلى قوى أخرى ذات اتجاهات مختلفة، حتى يصبح «الاختلاف والتشتت» وصفاً لبنية الصراع لا لمجرد تبدل رئيس أو حكومة، عند اكتمال هذا الطور تبدأ الخارطة بالخروج من الشأن العراقي الداخلي إلى السباق نحو الكوفة.

ومن هنا يصبح اصطلاح «الحكم العباسي الثاني» مفتاحاً لقراءة مجموعة من الروايات دفعة واحدة، لا تسمية تاريخية منفصلة، فهو يجمع تحت هذا العنوان الاختلاف، والتشتت، وبقاء السلطان، ثم السباق بين الخراساني والسفيناني إلى الكوفة، والغاية من هذا الجمع أن تبقى الرواية متصلة بسياقها، إذ لا معنى لتعيين حكم ما إذا لم تظهر فيه بقية الصفات التي تذكرها الأخبار، لذلك تتحرك الفكرة من بنية الحكم إلى لحظة ضعفه، ثم إلى القوى التي تستفيد من هذا الضعف وتدخل العراق من الشرق والغرب.

الفصل الثالث

اختلاف ووهن مع بقاء السلطان

تصف الروايات مرحلة يختلف فيها ولد العباس ويضعف سلطانهم، مع بقاء العنوان قائماً حتى قيام السفيناني، ويأتي الاستشهاد بقول الإمام الرضا عليه السلام حين قيل له إن السفيناني يقوم بعد ذهاب سلطان بني العباس:

«كذبوا، إنه ليقوم وإن سلطانهم لقائم»⁽²⁴⁾

إذن الصورة هنا ليست فراغاً سياسياً كاملاً، بل حكم قائم ضعيف تتكاثر داخله الانقسامات وتزداد أطماع القوى المحيطة به، ومع الوهن يبدأ كل صاحب قوة بإظهار ما عنده، ويتحول الخلاف السياسي إلى مشهد أوسع من تنازع الرايات والسلاح.

الروايات المعتمدة هنا لا ترسم فراغاً كاملاً قبل السفيناني، بل تؤكد أن السلطان يمكن أن يكون قائماً مع الوهن والاختلاف، وهذا تفصيل أساسي، لأن بعض القراءات تتصور أن العلامات لا تبدأ إلا بعد سقوط كل مؤسسات الدولة، بينما النص المستشهد به عن الإمام الرضا عليه السلام يقول إن السفيناني يقوم «وإن سلطانهم لقائم».

24 النعاني، الغيبة، ص 315، الحديث 11 عن الحسن بن الجهم، عن الإمام الرضا عليه السلام:

«كذبوا، إنه ليقوم وإن سلطانهم لقائم».

إذن توجد مرحلة يكون فيها الحكم موجوداً اسماً ومؤسسات، لكن قدرته على الضبط أضعف من السابق، تتصارع داخله الولاءات، ويزداد تأثير القوى الخارجية، ويظهر أصحاب السلاح والتنظيم، ويصبح القرار موزعاً، هذه البيئة تفسر كيف يمكن أن تنتقل الأحداث بسرعة حين تظهر العلامة الفاصلة، فالبنية تكون قد فقدت كثيراً من تماسكها قبل أن يدخل السفيني.

وفي ضوء هذه الروايات لا يُطلب من المؤمن أن ينتظر انهيار الدولة كي يعرف أنه في زمن اضطراب، الوهن نفسه علامة على تحول أعمق في موازين القوة، ويحتاج إلى بصيرة تمنع الإنسان من الانجراف مع كل طرف يظهر في لحظة الضعف.

هذا الجمع بين البقاء والوهن يفسر عدم اشتراط السقوط الكامل للحديث عن اقتراب المرحلة التالية؛ الدولة قد تبقى بوزاراتها ومؤسساتها وعنوانها القانوني، لكنها تكون في داخلها موزعة الإرادة ومحدودة القدرة، فتتسع مساحة القوى التي تعمل إلى جانبها أو خارجها، وعند هذه النقطة يصبح الاختلاف نفسه عاملاً مولداً للأحداث، لأنه لا يبقى نزاعاً سياسياً، بل يفتح الطريق لإعادة توزيع القوة، وهذه هي الحلقة التي تصل «وهي سلطانهم» بما سيأتي من ظهور الرايات وتوجهها نحو الكوفة.

الفصل الرابع

هلاك الفلاني وهدم حائط مسجد الكوفة

من العناوين البارزة في هذه المرحلة «هلاك الفلاني» من بني العباس، ويُقرأ بوصفه جزءاً من انفتاح الخلاف داخل الحكم.⁽²⁵⁾ كما تبرز أهمية خاصة لرواية هدم حائط مسجد الكوفة من مؤخره مما يلي دار ابن مسعود، وقد طُبِّقت على واقعة هدم حدثت سنة 2013.⁽²⁶⁾

وتُعد هذه العلامة من الوقائع المتحققة ضمن إرهابات العراق، ويضعها في سياق زوال ملك بني فلان ودخول البلاد في طور أكثر اضطراباً.

ويُجمع بين عنوانين عراقيين يراهما قريبين من مرحلة الانفتاح الكبير في الصراع: «هلاك الفلاني» من بني العباس، وهدم حائط مسجد الكوفة من مؤخره مما يلي دار ابن مسعود، هلاك الفلاني عنده ليس مجرد موت شخصية، بل يدخل في سياق اضطراب الحكم وفتح الباب أمام مرحلة أشد تشتتاً، ولذلك يرد في بعض الروايات مقترناً بالفرج وخروج السفياي.

أما هدم حائط مسجد الكوفة فيتميز بتحديد مكاني شديد الوضوح، وقد طُبِّق الرواية على الهدم الذي وقع في الموضع الذي حدده من المسجد سنة

25 النعماني، الغيبة، ص 266، الحديث 16؛ عن ابن أبي يعفور، عن الإمام الصادق عليه السلام، وفيه «هلاك الفلاني وخروج السفياي» و«الفرج كله هلاك الفلاني من بني العباس».

26 النعماني، الغيبة، ص 185، الحديث 57؛ عن خالد القلانسي، عن الإمام الصادق عليه السلام، في هدم حائط مسجد الكوفة من مؤخره مما يلي دار ابن مسعود.

2013، ويؤكد الشيخ عبدالحليم في محاضراته أن إعادة البناء اللاحقة لا تلغي وقوع الهدم نفسه، لأن موضوع الخبر عنده هو حصول الواقعة لا بقاء الحائط مهدومًا إلى النهاية.

أهمية هذه الجزئية في منهجه أنها مثال على انتقال الروايات من الأوصاف العامة إلى موضع يمكن تشخيصه، وهي في الوقت نفسه لا تكفي وحدها لتحديد زمن الظهور، إنما تصبح ذات دلالة حين تُضم إلى بقية عناصر العراق: اختلاف الحكم، ووهن السلطان، والقتل بين الكوفة والحيرة، والرايات، ثم السفيناني.

ويُرتب هذين العنوانين ضمن تراكم العلامات العراقية، فلا يعاملهما كحادثتين معزولتين، هلاك الفلاني يدل في قراءته على انفتاح مرحلة جديدة داخل الحكم، وهدم الحائط يقدم علامة مكانية دقيقة في الكوفة، وعندما توضع العلامة السياسية إلى جانب العلامة المكانية تتكاثف القرائن التي تشد النظر إلى العراق، المقصود من هذا التراكم ليس إيقاف البحث عند حادثة واحدة، بل متابعة السلسلة إلى ما بعدها: القتل بين الكوفة والحيرة، والرايات المشتبهة، والشيصباني، ثم دخول القوى القادمة من خارج العراق.

الفصل الخامس

القتل بين الكوفة والحيرة

«ويكون قتل بين الكوفة والحيرة، قتالهم على سواء»⁽²⁷⁾

وتُفهم عبارة «قتالهم على سواء» بوصفه صراعاً لا تكون فيه إحدى الرايات المتقاتلة هي راية الحق الواضحة، ويضعه في البيئة الشيعية العراقية وفي محيط الكوفة والنجف والحيرة، وهنا تصبح خطورة الفتنة أشد، لأن الأطراف قد تتحدث باللغة الدينية نفسها بينما يكون الصراع نفسه بعيداً عن راية صاحب الأمر.

حين تذكر الرواية قتلاً بين الكوفة والحيرة ثم تقول «قتالهم على سواء»، وتبرز أهمية هذه العبارة أكثر من توقفه عند مجرد وقوع القتال، فهو يفهمها على أن المواجهة لا تجمع راية حق خالصة في جانب وباطل واضح في الجانب الآخر، بل يقع الاشتباك بين قوى متقاربة في البيئة والشعار، فلا يكون مجرد الانحياز إلى أحد المتقاتلين طريقاً مضموناً إلى الحق.

والحيرة قريبة من الكوفة والنجف، ولذلك يضع الشيخ هذا الاحتمال في محيط شيعي عراقي، ويربطه بحديث الرايات المشتبهة، هنا تظهر خطورة الفتنة الداخلية: الطرفان قد يستعملان مفردات دينية، وقد يكون لكل منهما

27 النعماني، الغيبة، ص188، الحديث 65؛ عن جابر الجعفي، عن الإمام الباقر عليه السلام، في الفتنة بالشام والقتل بين الكوفة والحيرة.

جمهور يظن أنه يدافع عن الحق، بينما تظل الراية المهدوية الحقيقية خارج هذا الاقتتال أو غير متشخصة فيه.

هذه الصورة تعيدنا إلى وظيفة «استبقاء النفس»، فعندما يكون القتال «على سواء» لا يصبح الموت تحت أي شعار فضيلة في ذاته، المطلوب أن يعرف المؤمن أين يقف صاحب الأمر من الصراع، وأن لا يسمح للانتماء المحلي أو الحزبي بأن يتقدم على ميزان الإمام.

وتعبير «قتالهم على سواء» هو الذي يجعل التوقف عند طبيعة هذا الصراع ضرورياً، فالمشكلة ليست مجرد وقوع قتل في منطقة معلومة، بل أن القتال لا يقدم للمؤمن راية حق ظاهرة يستطيع أن يندفع إليها بلا تردد، وهذا ينسجم مع الباب الأول كله: زمن الاشتباه ليس زمن اختبار النفس تحت كل شعار، وحين يقع الاقتتال في بيئة تتشابه فيها العناوين الدينية والاجتماعية، تصبح البصيرة أهم من الحماسة، لأن التشابه في اللغة قد يخفي اختلافاً جذرياً في الوجهة.

الفصل السادس

اثنتا عشرة راية مشتبهة

«ولترفعن اثنتا عشرة راية مشتبهة لا يدري أي من أي»⁽²⁸⁾

الاشتباه هنا يأتي من التشابه، أسماء دينية، وخطابات متقاربة، وجماعات تزعم جميعها أنها تمثل الحق، وفي تنمة الرواية يشير الإمام إلى وضوح أمر أهل البيت، فيصبح المعنى هنا: يمكن أن تشبه الرايات البشرية، لكن الإمام لا يصبح مشتبهًا، ومن يعرف الإمام يجعل منه الميزان الذي يقيس به الرواية، العدد في الرواية مهم، لكن مركز الفكرة هو كلمة «مشتبهة»، الاشتباه لا ينشأ من أن الرايات لا تملك أسماء، بل من أن أسماءها وشعاراتها قد تكون متشابهة إلى حد لا يعرف الناس «أي من أي»، وهذا يتفق مع طبيعة الفتن داخل البيئة الدينية، كل جماعة تستطيع أن تتحدث باسم الإصلاح أو الدفاع عن المذهب أو التمهيد أو المصلحة العامة.

وفي تنمة الرواية، عندما يسأل الراوي وهو يبكي كيف يصنع في ذلك الزمن، يشير الإمام إلى وضوح أمرهم، ويُقرأ هذا المشهد باعتباره جوابًا على المشكلة كلها: الرايات تشبه، أما الإمام فلا يصبح رايةً بشريةً مجهولة بين اثنتي عشرة راية، من عرفه قبل الفتنة يستطيع أن يجعل وجهة الدعوة إليه هي المعيار.

28 الكليني، الكافي، ج 1، طبعة دار الأسوة، طهران، ص 380، الحديث 11؛ عن المفضل بن عمر، عن الإمام الصادق عليه السلام، في الاثنتي عشرة راية المشتبهة.

ولهذا لا يُعالج الاشتباه بزيادة الانفعال، بل بزيادة المعرفة، وكلما كثرت الرايات تصبح قاعدة «إلى من تدعو؟» أكثر أهمية من الأسماء والألوان، وسيعود هذا المعيار في الياني والخراساني، ثم في مرحلة الظهور حين تسقط الأعذار بعد حضور صاحب الأمر بنفسه.

العدد هنا يضاعف معنى الحيرة، فالمؤمن لا يواجه خيارين واضحين فقط، بل كثرة من الرايات التي تتقارب في الشعار حتى «لا يدرى أي من أي»، ولا يكون العلاج في حفظ أسماء القادة، لأن الأسماء تتغير، وإنما في امتلاك ميزان سابق على الرايات نفسها، ولذلك تعود الرواية بالقارئ إلى معرفة الإمام: كل راية تُفحص بمقدار ما تقود إليه، وكل مشروع يُسأل هل يجعل نفسه غاية أم يفتح الطريق لصاحب الأمر، وبهذا تصبح كثرة الرايات سبباً لمزيد من الرجوع إلى الأصل لا سبباً لمزيد من التشتت.

الفصل السابع

الشيصباني

«وأنى لكم بالسفياني حتى يخرج قبله الشيصباني، يخرج من أرض كوفان، ينبع كما ينبع الماء، فيقتل وفدكم، فتوقعوا بعد ذلك السفياني وخروج القائم»⁽²⁹⁾

الشيصباني في هذا الترتيب شخصية عراقية كوفية تسبق السفياني، ولهذا لا يقفز إلى السفياني قبل اكتمال هذه الحلقة، فالرواية نفسها تجعل الشيصباني سابقاً، وتعبير «ينبع كما ينبع الماء» يعطي في شرحه صورة ظهور سريع وانتشار يخرج من داخل أرض كوفان.

الشيصباني واحد من العناوين التي تمنع اختصار الطريق إلى السفياني، الرواية تقول: «وأنى لكم بالسفياني حتى يخرج قبله الشيصباني»، أي إن هناك حلقة عراقية تسبق العلامة الشامية، لذلك يرفض هذا الترتيب القفز فوق هذه الشخصية حين يحاول الناس تعيين كل قائد يظهر في الشام على أنه السفياني.

تحدد الرواية أرض خروجه بـ«كوفان»، وتصف حركته بأنها تنبع كما ينبع الماء، وتقرأ هذه الصورة على أنها نشوء من داخل البيئة العراقية وانتشار

29 النعماني، الغيبة، ص313، الحديث 8؛ عن جابر الجعفي، عن الإمام الباقر عليه السلام، في خروج الشيصباني من أرض كوفان قبل السفياني.

سريع، لا قوة تأتي من خارجها ابتداءً، كما يربطها بعنف يصيب جماعة من الناس قبل أن تنتقل الأحداث إلى السفيناني.

وفي بنية الباب يؤدي الشيصباني وظيفة زمنية وجغرافية: فهو يثبت أن العراق ما زال ينتج أحداثاً داخلية قريبة قبل دخول القوة السفينانية، ولذلك لا تُفهم خارطة العراق بمجرد انتظار جيش قادم من الشام؛ هناك مسار محلي ينبغي أن يكتمل أولاً.

الفصل الثامن

صاحب البرقع

«رجل منكم يقول بقولكم، يلبس البرقع فيحوشكم، فيعرفكم ولا تعرفونه، فيغمز بكم رجلاً رجلاً»⁽³⁰⁾

تثير هذه الرواية هنا معنى الاختراق من الداخل، صاحب البرقع ليس عدوًا يعلن نفسه من خارج البيئة، هو «منكم» و«يقول بقولكم»، لكنه يعرف الناس بينما يخفي عليهم، ويشرح البرقع باحتمال الغطاء الحسي أو القناع المعنوي الذي يخفي حقيقة صاحبه، وفي الحالتين تبقى الدلالة على الخفاء والتمويه.

تختلف خطورة صاحب البرقع عن خطر العدو الظاهر، الرواية تصفه بأنه «منكم» و«يقول بقولكم»، أي إنه يتحرك من داخل البيئة ويملك لغتها ومعرفة بأفرادها، بينما لا يعرف الناس حقيقته، ومن هنا يتضح البرقع على مستويين محتملين: غطاء حسي يخفي الوجه، أو قناع معنوي يخفي حقيقة المشروع خلف هوية مألوفة.

المعنى الأعمق في هذا الفصل هو الاختراق، المجتمع قد يستعد لعدو خارجي فيترك الباب مفتوحًا لمن يتحدث بلغته، وصاحب البرقع يعرف

30 الطوسي، الغيبة، طبعة مؤسسة الأعلمي، بيروت، ص179؛ عن عمر بن أبان الكلبي، عن الإمام الصادق عليه السلام، في صاحب البرقع وصاحب السفيناني.

الناس ويميزهم «رجلاً رجلاً»، ولذلك تصبح المعرفة الأمنية والاجتماعية والقدرة على التمييز جزءاً من الفتنة نفسها.

وهذا يتصل مرة أخرى بقاعدة الرايات المشتبهة: التشابه في القول لا يكفي، ومن هنا تبرز ضرورة ألا يثبت الولاء بمجرد انتساب شخص إلى البيئة الشيعية أو استعماله مفرداتها، بل يُنظر إلى المسار والوجهة والموقف من الإمام، كلما اقتربت الأحداث، يصبح الاختبار من الداخل أكثر دقة.

وهذا المعنى يجعل خطر صاحب البرقع مختلفاً عن خطر عدو معلن، فالعدو الخارجي يسهل تشخيصه، أما الذي «يقول بقولكم» فيتحرك داخل اللغة والبيئة نفسها، لذلك ترتبط الرواية بمشكلة الوعي من الداخل: كيف يحفظ المجتمع معلوماته وأفراده وقراره ممن يتشبه به؟ فالبرقع، سواء فهم على ظاهره أو على معنى القناع، يضع عنصر الخفاء في قلب الفتنة، ويؤكد مرة أخرى أن مجرد التشابه في الخطاب لا يكفي لمنح الثقة.

الفصل التاسع

الخراساني والسفياي نحو الكوفة

عندما تكتمل مقدمات العراق، ينتقل الصراع من الداخل إلى تقاطع القوى الإقليمية، الخراساني يأتي من المشرق، والسفياي من الشام، ويستبقان إلى الكوفة كفرسي رهان، هنا يصبح العراق قلب المشهد: حركة من الشرق وحركة من الغرب ومقصد واحد.

وعند هذه المرحلة يصل الحكم العباسي الثاني بحسب هذا التسلسل إلى نهايته، وتنتقل الخارطة من إرهابات طويلة إلى علامات متسارعة، ولهذا لا يمكن فهم السفياي من دون قراءة ما يسبقه في العراق.

هنا تصل الخيوط العراقية إلى نقطة التحول الكبرى، بعد الوهن والاختلاف والرايات والشخصيات المحلية، لا يبقى الصراع داخل الحدود، تتحرك قوة من المشرق تحت عنوان الخراساني، وتتحرك قوة من جهة الشام تحت عنوان السفياي، وتصف الرواية المسار كسباق «كفرسي رهان» إلى الكوفة.

صورة السباق تعني السرعة والتزامن، ليست المسألة أن يأتي أحدهما ثم تمر سنوات فيأتي الآخر، كلاهما يدخل مرحلة واحدة، وكل منهما يريد الوصول إلى القلب العراقي، وهذا يفسر لماذا سيضع الباب الخامس الخراساني إلى جانب البياني والسفياي في سنة وشهر ويوم واحد بحسب الرواية.

وعند هذه اللحظة يخرج العراق من طور الإرهابات الممتدة إلى طور العلامات المتقاربة، الكوفة التي كانت مسرحاً لاضطرابات داخلية تصبح

مقصداً لجيوش من جهتين، وبذلك يكتمل دور الباب الثالث كجسر بين البيئة السابقة وبين رجب العلامات.

وعندما يصل السرد إلى هذا السباق تتجمع خيوط الباب كله في نقطة واحدة، الخلاف والوهن والرايات المحلية لم تكن نهاية المشهد، بل إعداداً لساحة تدخلها قوتان كبيرتان من اتجاهين متقابلين، صورة «فرسي رهان» تعطي إحساساً بسرعة الحركة وتقاربها، وتفسر لماذا تصبح الكوفة ذات قيمة تتجاوز حدود العراق، فمن يسبق إليها لا ينافس على مدينة فقط، بل يدخل إلى عقدة مركزية في خارطة الظهور، ومنها ستتضح أكثر علاقة رايات المشرق بالسفياي وبصاحب الأمر.

الباب الرابع

الشام والسفيرياني

من الفتنة الشامية
إلى خروج السفيرياني في رجب

الفصل الأول

الشام رحم السفيناني

لا يبدأ بحث السفيناني من ملامح الرجل، بل من البيئة التي تسبقه، فالسفيناني لا يظهر في شام هادئة ولا يكون هو أول الفتنة، وإنما يخرج من رحم اضطراب طويل تتداخل فيه قوى داخلية وإقليمية ودولية، حتى تتشخص ثلاث رايات ويخرج من بينها.

وتبدأ القراءة من البيئة لأن السفيناني في مجموع الروايات التي يجمعها، ليس شرارة الفتنة الأولى، قبله شام مضطربة، وتدخلات متعددة، وأحداث في دمشق والجابية وحرسا، ثم اختلاف على رايات، لذلك فإن البحث عن شخص السفيناني من خلال الملامح وحدها يقطع الشخصية عن سياقها، أما قراءتها داخل الخارطة فتجعل الفتنة الشامية هي الرحم الذي يتشكل فيه ظهوره.

بهذا الترتيب تصبح العلامات المكانية والسياسية قرائن متعاونة، كلما اقتربت الصورة من الوصف الروائي تقل مساحة التخمين، ولهذا ويتكرر أن السفيناني لا يُقرأ كاسم إعلامي يبرز فجأة، بل كقائد يأتي بعد سلسلة من التغيرات، ويدخل في صراع على الشام، ثم يستقر في دمشق قبل أن تمتد حركته إلى العراق والحجاز.

وعند وصف الشام بأنها البيئة التي يخرج منها السفيناني، فالمقصود أن الشخصية لا تُفهم منفصلة عن الفتنة التي تُنضج شروط ظهورها،

الروايات لا تبدأ بالسفياي وهو يسيطر على دمشق، بل تضع قبله اضطراباً ممتداً، وتدخلات خارجية، وتنازعاً داخلياً، ثم رايات تتمايز شيئاً فشيئاً، وبهذا يصبح البحث عن السفياي قبل قراءة الشام بحثاً عن النتيجة من دون مقدماتها، فالشام في الخارطة ليست مجرد مكان جغرافي، بل مسار أحداث تتكاثف داخله عناصر الاضطراب حتى تصل إلى النقطة التي يظهر فيها الرجل الذي ستتصل حركته بالعراق والحجاز.

ومن هنا لا يصح أن يُحتزل المشهد السوري في حكومة أو فصيل أو معركة واحدة، الفتنة أوسع من الأسماء التي تتبدل داخلها، قد تسقط سلطة وتقوم أخرى، وقد تتغير التحالفات والحدود، بينما يبقى أصل الاضطراب قائماً، لذلك فإن الراية السفيايية في مسار الأحداث ليست أول قصة الشام، وإنما إحدى نتائجها المتأخرة، وحين تتشخص يكون القارئ قد مر قبلها بسلسلة من العلامات والمقدمات التي تمنحها موقعها الصحيح في الخارطة.

الفصل الثاني

فتنة لا يجد الناس منها مخرجًا

«لا يظهر القائل حتى يشمل الناس بالشام فتنة يطلبون المخرج منها فلا يجدونه»⁽³¹⁾

الفتنة هنا حالة ممتدة، لا معركة واحدة، قد تتغير الوجوه والأنظمة والفصائل، لكن أصل الاضطراب يبقى حتى يصل الشام إلى المرحلة التي تسبق السفيناني، ومن هنا فإن تبدل القوى في سوريا لا يعني وحده نهاية الفتنة، فالمسار الروائي يضع بعدها علامات مكانية ورايات محددة.

عبارة «يطلبون المخرج منها فلا يجدونه» ترسم فتنة تستنزف الناس وتغير أشكالها، قد يظن المجتمع أن إسقاط طرف أو انتصار آخر هو نهاية المحنة، ثم تنفتح جولة جديدة، وهذه الصفة تجعل الأزمة السورية منذ 2011 أقرب إلى نموذج الفتنة الممتدة من كونها حربًا ذات بداية ونهاية واضحتين.

والاستمرار مهم لفهم ما بعده، لأن الرايات الثلاث لا تنشأ في فراغ، بل من داخل تراكم طويل من الانقسام، حين تفقد التسويات قدرتها على إنهاء الاضطراب، وتدخل قوى خارجية وإقليمية، يصبح ظهور قائد يحاول حسم الشام بالقوة جزءًا مفهوميًا من تسلسل الرواية، لذلك

31 النعماني، الغيبة، ص 188، الحديث 65؛ عن جابر الجعفي، عن الإمام الباقر عليه السلام: «لا يظهر القائل حتى يشمل الناس بالشام فتنة...» بحسب البيانات الواردة في المحاضرة.

فالفصل لا يقف عند معاناة الشام، بل يهيم مباشرة لصورة الأصبه والأبقع والسفياى.

عبارة «يطلبون المخرج منها فلا يجدونه» تمنح الفتنة الشامية بعداً يتجاوز طول المدة، فهي تصف حالة تتكرر فيها محاولات الخروج ولا تنتهي إلى استقرار حاسم، وهذا ما يجعل النظر إلى تبدل الحكومات والاتفاقات والتدخلات بوصفه أجزاءً من فتنة واحدة ما دام المخرج النهائي الذي تتحدث عنه الروايات لم يتشخص، ليست القضية أن كل حادثة سياسية مذكورة في النص، بل أن المشهد العام يبقى في حركة واضطراب إلى أن يبلغ المرحلة التي تظهر فيها العلامات الأكثر تحديداً.

ويفسر ذلك أيضاً لماذا لا يصح أن يُعلن انتهاء الفتنة لمجرد انحسار القتال في منطقة أو تغير الطرف المسيطر على العاصمة، فالفتنة في هذا المفهوم تمتد إلى بنية المجتمع والدولة والعلاقات الإقليمية، وقد تنتقل من صورة عسكرية صريحة إلى صورة سياسية أو أمنية أو اقتصادية، وحين يضع القارئ هذا المعنى أمامه، يفهم أن الرواية ترسم مناخاً طويلاً يسبق السفياى، لا حادثة قصيرة يمكن حصرها في يوم أو عام.

الفصل الثالث

الجابية ودمشق والترك والروم

في رواية جابر الجعفي يرد ذكر الجابية، وسقوط طائفة من مسجد دمشق، وحركة مرتبطة بالترك وهرج الروم، ثم الوصول إلى الرايات الثلاث.⁽³²⁾ وتُقرأ هذه العناصر ضمن التدخلات الإقليمية والدولية في الشام، ويُنظر إلى الوجود التركي والغربي جزءاً من المسرح الذي يتشكل قبل السفيناني.

في حديث جابر تتجاوز عناوين تبدو متباعدة إذا قُرئت منفصلة: الجابية، مسجد دمشق، حركة من ناحية الترك، و«هرج الروم»، وتُجمع في لوحة تدخل فيها الجغرافيا السورية مع تأثير قوى إقليمية ودولية، الجابية عنده موضع في المجال الشامي، ودمشق مركز السلطة، والترك عنوان لحضور يتوسع في المنطقة، أما الروم فيطبقه على المجال الغربي، ولا سيما أوروبا والولايات المتحدة بحسب القرائن التي يعتمدها.

ويشرح «هرج الروم» بأنه أوسع من حرب واحدة: اضطراب سياسي واجتماعي واقتصادي، وصدامات داخل الدول وبينها، وانتشار للقتل

32 النعماني، الغيبة، ص 188، الحديث 67؛ عن جابر الجعفي، عن الإمام الباقر عليه السلام: يا جابر، إلزم الأرض ولا تحرك يداً ولا رجلاً حتى ترى علامات أذكرها لك إن أدركتها: أولها اختلاف بني العباس، وما أراك تدرك ذلك، ولكن حدث به من بعدي عني، ومناد ينادي من السماء، ويحييكم الصوت من ناحية دمشق بالفتح، وتخسف قرية من قرى الشام تسمى الجابية، وتسقط طائفة من مسجد دمشق الأيمن، ومارقة تفرق من ناحية الترك، ويعقبها هرج الروم

والاختلاط في المواقف من غير أن يعني بالضرورة زوال تلك الدول، أهمية ذلك أن الشام لا تتحرك بمعزل عن العالم، فاضطراب القوى الكبرى أو انشغالها يغير شروط التدخل والتحالف في منطقة الظهور.

تتقدم الرواية هنا من الوصف العام للفتنة إلى علامات مكانية وقوى محددة: الجابية، مسجد دمشق، الترك، والروم، ولا تأتي هذه الأسماء على سبيل الزينة الروائية، بل لتقول إن الفتنة الشامية ستكون مفتوحة على محيطها، وأن ما يجري في داخل سوريا يتداخل مع قوى قادمة من خارجها، لذلك يصبح فهم الشام مرتبطاً بتركيا وبالقوى الغربية وبالحركة الإقليمية الأوسع، لا بحدود الدولة السورية وحدها.

كما أن ترتيب هذه العناصر يعلم القارئ طريقة قراءة الرواية: لا نأخذ كلمة «الترك» وحدها فنبحث عن أي حضور تركي، ولا كلمة «الروم» فنلصقها بأي قوة غربية، بل ننظر إلى الشبكة كلها، كلما اجتمعت أجزاء أكثر من الصورة، صار موقع الحدث أوضح داخل الخارطة، بهذه الطريقة يتحول النص من قائمة أسماء إلى تسلسل يشرح كيف تتكاثف التدخلات والاضطرابات قبل أن تتشخص الرايات الثلاث في الشام.

الفصل الرابع

الأصهب والأبقع والسفياني

«ثم يختلفون عند ذلك على ثلاث رايات: راية الأصهب، وراية الأبقع،
وراية السفياني»⁽³³⁾

السفياني لا يظهر وحده، هناك صراع بين ثلاث رايات على الشام، وفي جمع الروايات يدخل السفياني في مواجهة مع الأصهب والأبقع حتى يفرض سيطرته، وهذا يجعل وجود الرايتين جزءاً من الصورة السابقة لاستقرار الأمر له في دمشق.

تذكر الرواية ثلاث رايات متنافسة، وهذا يمنع تصوير السفياني وكأنه يدخل دمشق من غير مقاومة، الأصهب والأبقع يمثلان قوتين قائمتين في الشام حين يتشخص هو، ثم يقع الصراع الذي ينتهي بتغلبه، لذلك فإن وجود الطرفين ليس تفصيلاً ثانوياً؛ هو جزء من الشرط السياسي الذي يسبق استقرار السفياني.

ومن الناحية العملية يجعل تزامن الرايات أداة تشخيص أقوى من الاسم أو النسب، عندما لا تكون رايتا الأصهب والأبقع قد تشخصتا في الصورة التي تجمعها الروايات، يظل المشهد ناقصاً، وحين تتجمع هذه العناصر مع

33 النعماني، الغيبة، ص 188، الحديث 67؛ عن جابر الجعفي، عن الإمام الباقر عليه السلام، في الجابية وهرج الروم وإخوان الترك والرايات الثلاث: الأصهب والأبقع والسفياني.

حرسا والوادي اليابس ورجب، ينتقل البحث من التشابه العام إلى سلسلة أكثر تحديداً.

وجود الأصهب والأبقع إلى جانب السفيناني مهم لأنه يمنع تصور أن السفيناني يدخل الشام من فراغ فيجدها خالية من المنافسين، الرواية تضعه داخل صراع ثلاثي، وهذا يعني أن المرحلة السابقة لسيطرته هي مرحلة تنازع على الشام نفسها، وفي جمع الروايات لا تكون الرايات الثلاث متكافئة في النتيجة، السفيناني هو الذي يتقدم في النهاية ويصبح صاحب القوة الأبرز، لكن ذلك لا يحصل إلا بعد صراع يكشف أن الشام كانت موزعة بين مشاريع متنافسة.

ومن الناحية المنهجية، فإن ذكر الرايتين الآخرين يحمي القارئ من التسرع في تسمية أي قائد قوي بالسفيناني، ظهور شخصية متشددة أو سيطرتها على جزء من سوريا لا يكفي وحده، الصورة الروائية أوسع، وتضم خصوصاً ومساراً واستقراراً لاحقاً في دمشق، ولهذا يكون تشخص الأصهب والأبقع جزءاً من التعرف على السفيناني نفسه، لأن العلامة لا تُقرأ بصفة واحدة، بل بمجموع سياقها.

الفصل الخامس

حرسا والوادي اليابس

«إذا كان ذلك فانظروا خسف قرية من دمشق يقال لها حرسا، فإذا كان ذلك خرج ابن آكلة الأكباد من الوادي اليابس حتى يستوي على منبر دمشق، فإذا كان ذلك فانظروا خروج المهدي»⁽³⁴⁾

وتقع حرسا على العتبة القريبة من خروج السفياي، ثم يأتي الوادي اليابس موضعاً لخروجه، ودمشق موضعاً لاستقرار سلطانه، ويربط الشيخ الوادي اليابس بامتداد جغرافي في جهة الشام بين سوريا والأردن وفلسطين، مع تركيز الحركة على المجال السوري.

يربط النص المعروض هنا بين خسف حرسا وخروج «ابن آكلة الأكباد» من الوادي اليابس ثم استوائه على منبر دمشق، هذا الاتصال يجعل الجغرافيا نفسها ترتيباً للأحداث: واقعة قريبة من دمشق، ثم خروج من الوادي اليابس، ثم انتقال إلى مركز الحكم، وليست الأماكن مجرد زينة في الرواية، بل علامات تساعد على فهم الحركة.

ويتضح هنا الوادي اليابس في المجال الجغرافي المتصل بجنوب الشام، مع امتداد بين سوريا والأردن وفلسطين، بينما تبقى دمشق غاية السيطرة

34 النعاني، الغيبة، ص317، الحديث 16؛ عن الإمام الباقر عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام، في خسف حرسا وخروج ابن آكلة الأكباد من الوادي اليابس.

السياسية، أما حرستا فهي من ريف دمشق، ولذلك يراها على العتبة القريبة من تحول الفتنة إلى مرحلة السفيناني، وهكذا تصبح قراءة المكان وسيلة لربط الأخبار التي تذكر الشخصية بالأخبار التي تصف المسرح.

في هذا الموضع تضيق الجغرافيا أكثر، بعد الحديث عن فتنة واسعة في الشام وعن الجابية ودمشق والرايات، تضع الرواية حرستا ثم الوادي اليابس في الطريق إلى استواء السفيناني على منبر دمشق، وهذه الحركة من الجغرافيا الواسعة إلى الموضع المحدد لها دلالة واضحة في تسلسل الخارطة: كلما اقتربت الأحداث من السفيناني أصبحت العلامات أكثر تحديداً، وكأن الخارطة تنتقل من المناخ العام إلى العتبة المباشرة.

ولهذا لا تُعامل حرستا كاسم منفصل يُبحث عنه في الأخبار كل يوم، بل توضع ضمن ترتيب: فتنة، ثم أحداث شامية، ثم رايات، ثم واقعة في حرستا، ثم خروج من الوادي اليابس، ثم استقرار في دمشق، المعنى الذي يريده من هذا الجمع أن العلامة لا تُنتزع من مكانها، فإذا وقع حدث يحمل الاسم نفسه خارج هذه السلسلة، لا يكفي التشابه اللفظي وحده، قوة الدلالة تأتي من اجتماع الموضع مع الترتيب الذي تذكره الروايات.

الفصل السادس

ابن آكلة الأكباد وصورة السفيناني

تذكر المادة الروائية أوصافاً للسفيناني بوصفه «ابن آكلة الأكباد» الخارج من الوادي اليابس، وتذكر في بعض الروايات صفات جسمية وأخلاقية.⁽³⁵⁾⁽³⁶⁾ ويعيد هذا العنوان السفيناني إلى الامتداد الأموي والسفيناني التاريخي، فيكون شخصيةً ومنهجاً معادياً لخط أهل البيت عليهم السلام.

لقب «ابن آكلة الأكباد» يعيد السفيناني إلى الامتداد الأموي المعادي لخط أهل البيت عليهم السلام، فالقصد ليس بناء صورة تاريخية زخرية، بل بيان أن الشخصية تحمل هوية ومنهجاً له جذور في الخصومة مع العترة، وتأتي الأوصاف الجسمية والأخلاقية في بعض الروايات لتزيد التشخيص حين يحين وقته.

غير أن وظيفة السفيناني في الخارطة أكبر من ملاحظه: إنه قائد يحسم جزءاً من الشام، ويتحرك نحو العراق، ويبعث قوة إلى الحجاز، ويرتبط به خسف البيداء، لذلك لا تكفي صفات الوجه والجسد، لأن الشخص الذي لا يحقق المسار العسكري والجغرافي الموصوف لا تستكمل به الصورة، الشخصية

35 الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج2، ص651، باب علامات خروج القائم، ح9؛ في خروج ابن آكلة الأكباد من الوادي اليابس.

36 الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج2، ص651، باب علامات خروج القائم، ح10؛ عن عمر بن يزيد، عن الإمام الصادق عليه السلام في وصف السفيناني.

تُعرف بمجموعها: أصل المنهج، والمكان، والزمان، والحركة.

وصف السفنياني بـ«ابن آكلة الأكباد» يعيد الحاضر إلى جذر أموي قديم، فالملقصود ليس النسب التاريخي مجرداً، وإنما الامتداد المنهجي لخط وقف في مواجهة محمد وآل محمد عليهم السلام، من هنا تصبح شخصية السفنياني عنده مركبة من رجل محدد يظهر في زمن العلامات ومن روح سياسية وعقدية تحمل عداءً لخط أهل البيت، وهذا يفسر لماذا تكتسب العلامة وزناً يتجاوز شخص قائد عسكري عابر.

أما الصفات الجسدية التي تنقلها بعض الروايات فتُقرأ هنا باعتبارها قرائن مساعدة داخل الصورة، لا باعتبارها المفتاح الوحيد للتشخيص، فالملاحح يمكن أن تتشابه، لكن اجتماع المنشأ من الوادي اليابس، والصراع في الشام، والاستقرار في دمشق، والحركة نحو العراق والحجاز هو الذي يمنح الشخصية موقعها الكامل، وهكذا يتعلم القارئ أن العلامات لا تُعرف بصورة وجه فقط، بل بسيرة ومسار وبيئة ونتيجة.

الفصل السابع

السفياني من المحتوم

للسفياني منزلة خاصة بين العلامات، وتأتي الروايات لتصفه بأنه من المحتوم، مع إبقاء المحتوم داخل قانون البدء، بينما قيام القائم من الميعاد الذي لا يخلفه الله، ويترتب على ذلك أن المؤمن يدرس العلامة بجدية، لكنه يبقى مسلماً للمشیئة الإلهية ولا يحولها إلى توقيت بشري مغلق.⁽³⁷⁾

ويأتي حديث المحتوم داخل شرح أوسع لقانون البدء، ويتضح أن هناك «ميعاداً» لا يتخلف، ومحتوماً يدخل في قانون البدء، وأموراً غير محتومة كذلك، قيام القائم من الميعاد، أما السفياني فيرد في الروايات بوصفه من المحتوم، هذا التفريق يمنع أن تتحول دراسة العلامة إلى اعتقاد بأن البشر امتلكوا المستقبل كله.

وفي الوقت نفسه لا يعني قانون البدء أن العلامة عديمة القيمة، بالعكس، حين تقع وتتضح تترتب عليها وظيفة، ففي حديث سدير يتغير الموقف عند بلوغ خبر السفياني، وفي حديث آخر يأتي الأمر بالإجابة إليهم عند خروجه، ولذلك ويجمع بين الجدلية في معرفة العلامة والتسليم بأن الأمر كله تحت المشیئة الإلهية.

37 الكليني، الكافي، ج15 بحسب الطبعة التي ذكرها الشيخ، دار الحديث، ص623، الحديث 412؛ عن الفضل الكاتب، عن الإمام الصادق عليه السلام؛ في سياق لزوم الأرض حتى خروج السفياني وكونه من المحتوم.

وعند وصف السفيفاني بأنه من المحتوم، فإنه لا يريد أن يحول الرواية إلى قدر ميكانيكي مغلق، بل يعيدها إلى القاعدة التي شرحها في مسألة البداء: هناك «ميعاد» يرتبط بقيام القائم عليه السلام، وهناك «محتوم» تدخل علاماته في دائرة البداء بحسب ما نقله عن الإمام الجواد عليه السلام، وبذلك تبقى جدية العلامة محفوظة، وفي الوقت نفسه يبقى سلطان المشيئة الإلهية فوق الحسابات البشرية.

هذه القاعدة لها أثر تربوي مباشر، فهي تمنع طرفين متقابلين: طرفاً يستهين بالسفيفاني لأنه لا يريد أن يقرأ العلامات، وطرفاً يبني على العلامة جدولاً زمنياً حتمياً لا يترك فيه موضعاً للبداء، ويجمع هذا الموقف بين الاهتمام والتسليم، نعرف الرواية، ونفهم موضعها، ونستعد لما تقتضيه إذا تشخصت، لكننا لا نحول معرفتنا إلى ادعاء امتلاك الغيب.

الفصل الثامن

رجب وبداية التسارع

عند خروج السفيناني ينتقل الزمن إلى مرحلة جديدة، ففي حديث سدير يتغير التكليف عند بلوغ خبر خروجه، وفي روايات أخرى يتزامن السفيناني مع اليماني والخراساني، هنا يدخل «رجب العلامات» بوصفه نقطة تغير في سرعة الأحداث، لا مجرد اسم شهر يمر كل عام.

شهر رجب ليس مهمًا لأنه يتكرر كل عام، بل لأن الروايات تجمع في شهر رجب المقصود مجموعة من الوقائع المتقاربة، عنده يتشخص السفيناني مع اليماني والخراساني، وتبديل سرعة الخارطة من سنوات وعقود إلى أشهر، ولهذا يُسمى هنا «رجب العلامات».

الفارق هنا أن الزمن يبدأ نفسه بالدخول في التشخيص، فقبل ذلك كنا نتحدث عن دولة قامت سنة 1948، وثورة سنة 1979، وتحولات 2003 و2011، أما هنا فالمسافة بين الأحداث تصبح أقصر، وتبدأ الروايات في ربطها بالشهور، وهذا الانتقال هو الذي يهيئ للباب السادس، حيث يصبح التسلسل من شهر رجب إلى شهر رمضان ثم إلى شهر ذي الحجة وشهر محرم أكثر وضوحًا.

لا يعني «رجب العلامات» كل شهر رجب يمر على المسلمين، بل شهر رجب الذي تجتمع فيه العلامات المتقاربة التي تحدثت عنها الروايات، ولذلك لا يبدأ القارئ من التقويم ثم يسأل: من هو السفيناني هذه السنة؟ بل يبدأ من

الواقع الروائي: هل تشخص السفيناني؟ هل ظهرت الرايات المتزامنة؟ هل بدأت السلسلة التي يتبع بعضها بعضاً؟ فإذا اجتمعت هذه القرائن أصبح الشهر جزءاً من التعرف على المرحلة، لا أداة لتوقيت الظهور مسبقاً.

وهذا هو سر التحول الذي يصنعه شهر رجب في بنية الكتاب، قبل هذه النقطة كنا نتحدث عن عقود من الإرهاصات وعن دول وحروب وتحولات بطيئة، أما بعد تشخص السفيناني واليمني والخراساني، فإن وحدة الزمن نفسها تتغير: من العقود إلى الشهور، ثم لاحقاً من الشهور إلى الليالي، لهذا يمثل شهر رجب بوابة السرعة، وفيه يشعر القارئ بأن الخارطة التي كانت واسعة بدأت تضيق حول سنة واحدة.

الفصل التاسع

من دمشق إلى العراق والحجاز

بعد استقرار سلطانه في الشام تتحرك القوة السفينانية إلى العراق، حيث تتقاطع مع الخراساني عند الكوفة، ثم يرتبط به جيش يتجه إلى الحجاز وينتهي إلى خسف البيداء، وهكذا يمتد أثر السفيناني عبر الشام والعراق والحجاز، فيصبح علامة إقليمية كبرى لا قائدًا محليًا محدود النفوذ.

استقرار السفيناني في الشام لا يمثل نهاية حركته، العراق هو الاتجاه التالي لأن الكوفة تدخل في قلب الصراع، وهناك يلتقي مساره بمسار الخراساني، وتُصوّر هذه الحركة امتدادًا طبيعيًا لصراع الشام: القوة التي حسمت جبهة داخلية تنتقل إلى المجال العراقي الذي سبق أن دخل طور الوهن والتشتت.

ثم يمتد خط آخر نحو الحجاز، جيش السفيناني الذي يتجه إلى مكة يرتبط بخسف البيداء، فتتصل الشام بالحجاز عبر علامة من العلامات الخمس، وهكذا يصبح السفيناني خيطًا يربط ثلاثة أبواب جغرافية: الشام حيث يخرج، والعراق حيث ينافس على الكوفة، والحجاز حيث ينكسر جيشه بالخسف.

بعد استقرار السفيناني في الشام لا تتوقف دلالة العلامة عند حدود دمشق، الروايات الواردة هنا تفتح مسارين متصلين بحركته: مسار نحو العراق حيث تصبح الكوفة ميدان السباق مع الخراساني، ومسار نحو الحجاز يرتبط لاحقًا بالجيش الذي ينتهي إلى خسف البيداء، بهذا الاتساع نفهم لماذا يمثل السفيناني علامة مركزية؛ فهو يصل بين ثلاثة أقاليم من منطقة الظهور: الشام والعراق

والحجاز.

كما أن هذه الحركة تجعل الكوفة ومكة نقطتين مختلفتين في مشروعه، الكوفة موضع صراع وسيطرة واصطدام برايات أخرى، أما الحجاز فيرتبط بمحاولة الوصول إلى صاحب الأمر بعد ظهوره، ومن ثم لا تكون قصة السفيناني فصلاً مغلقاً في باب الشام، إنها خيط يستمر معنا إلى ما بعد الظهور في مكة، وهو ما يمنح الكتاب ترابطه الزمني والجغرافي.

الباب الخامس

رايات المشرق واليماني والخراساني

من «أهدى الرايات»
إلى البيعة لصاحب الأمر

الفصل الأول

ثلاث رايات في زمن واحد

«خروج السفيناني واليمني والخراساني في سنة واحدة، في شهر واحد، في

يوم واحد»⁽³⁸⁾

هذه الرواية تنقل الخارطة من زمن الإرهاصات إلى التقارب الشديد، السفيناني واليمني والخراساني يتمون إلى مرحلة واحدة، وكل واحد يساعد على تشخيص الآخرين، فلا يكون اليمني بعيداً بعقود عن السفيناني، ولا يكون الخراساني شخصية من عصر مختلف.

الرواية التي تجمع السفيناني واليمني والخراساني «في سنة واحدة، في شهر واحد، في يوم واحد» تمنح هذا الباب قاعدته الزمنية، فهي تمنع فصل الشخصيات الثلاث عن بعضها بزمن طويل، وتجعل ظهور كل واحدة منها قرينة تساعد على تشخيص الآخرين، ولذلك فإن البحث عن اليمني أو الخراساني قبل اكتمال صورة السفيناني يظل ناقصاً إذا فصل أحدهما عن الآخر.

ويشبه النص حركتهم بنظام مترابط، حتى كأن الأحداث تتدافع في وقت متقارب، هنا لا تعود الخارطة مجموعة مسارات مستقلة: اليمن والمشرق

38 النعماني، الغيبة، ص 264 بحسب الطبعة المتداولة؛ عن الإمام الباقر عليه السلام في تزامن خروج

السفيناني واليمني والخراساني في سنة واحدة وشهر واحد ويوم واحد.

والشام تتحرك معًا، والعراق يصبح نقطة التقاء، ولا سيما الكوفة، هذه الوحدة الزمنية هي التي تفسر انتقال الكتاب بعد هذا الباب مباشرة إلى رجب والتسارع.

تزامن السفيناني واليهاني والخراساني في سنة واحدة وشهر واحد ويوم واحد من أقوى مفاتيح التشخيص في هذا الباب، فالرواية لا تقدم ثلاثة أسماء متباعدة في التاريخ، بل ثلاث حركات تنتمي إلى اللحظة نفسها، ولذلك يرفض هذا الترتيب أن تُنتزع راية من هذه الثلاث وتُحمل على شخصية ظهرت قبل الأخرى بعقود، لأن الرواية جعلت التزامن جزءًا من تعريف المشهد.

ويترتب على هذا أن كل راية تصبح قرينة على أختيها، إذا تشخص السفيناني حقًا، فالسؤال ينتقل مباشرة إلى اليهاني والخراساني، وإذا ادعى أحد أنه اليهاني في زمن لا وجود فيه للسفيناني والخراساني بالمعنى الروائي، فإن شبكة العلامات نفسها لا تساعد دعواه، هكذا تتحول الرواية من خبر عن ثلاثة قادة إلى آلية تعارف متبادلة بين العلامات.

الفصل الثاني

اليمني أهدي الرايات

«وليس في الرايات راية أهدي من راية اليمني، هي راية هدى؛ لأنه يدعو إلى صاحبكم»⁽³⁹⁾

الكلمة المركزية هي «أهدي»، فالراية اليمنية تحمل وصفًا استثنائيًا بين الرايات البشرية في تلك المرحلة، وسر هذا الوصف ليس قوة عسكرية أو نسبًا أو لونًا، بل الوجهة: «لأنه يدعو إلى صاحبكم»، الراية الصادقة لا تجعل قائدها نهاية المشروع، وإنما تقود إلى صاحب الأمر.

وصف اليمني بأنه «أهدي الرايات» ليس مدحًا عامًا بلا سبب، الرواية نفسها تعلل ذلك: «لأنه يدعو إلى صاحبكم»، وعند هذه العبارة تتضح أهمية المعيار يمكن فهمه من داخل المشروع المهدي نفسه، قيمة الراية لا تقاس أولاً بعدد جنودها ولا بقدرتها السياسية، بل بكونها تنقل الناس نحو الإمام.

ومن هنا تكون «الأهدي» وصفًا للوجهة والطريقة، اليمني لا يطالب الناس أن يجعلوه غاية مستقلة، ولا يبني ولاءً ينافس بيعة القائم، بل تكون وظيفته أن يفتح الطريق إلى صاحب الأمر، وفي هذا المعنى تتجلى الصلة بين الباب الأول والباب الخامس: معرفة الإمام هي التي تمكن المؤمن من فهم

39 النعاني، الغيبة، ص 264 بحسب الطبعة المتداولة؛ عن الإمام الباقر عليه السلام: «وليس في الرايات راية أهدي من راية اليمني...، لأنه يدعو إلى صاحبكم».

لماذا كانت الدعوة إليه سبباً في تفضيل هذه الراية.

وصف راية اليماني بأنها «أهدى الرايات» لا يكتفي بمدح صاحبها، بل يضع أمام المؤمن معياراً عملياً في زمن كثرة الرايات، الهدى هنا مرتبط في نص الرواية بسبب واضح: «لأنه يدعو إلى صاحبكم»، ومن ثم فإن قيمة اليماني بحسب دلالة الرواية لا تنبع من قوة دولته ولا من كثرة أتباعه، وإنما من أن اتجاهه النهائي ليس إلى نفسه بل إلى الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف.

هذا السبب هو الذي يمنع تحويل اليماني إلى مركز بديل عن الإمام، فحتى أهدى الرايات البشرية لا تكون الغاية، هي طريق، وكل ما في الراية من تنظيم وقوة وخطاب ينبغي أن ينتهي عند حضور صاحب الأمر إلى التسليم له، ولذلك فإن وصف «أهدى» يشرح وظيفة الراية بقدر ما يشرح فضلها: الهداية الحقيقية أن تختصر المسافة بين الناس وإمامهم.

الفصل الثالث

معنى الدعوة إلى صاحبكم

وتتصل هذه العبارة بما ورد في شأن زيد بن علي عليه السلام من أنه لم يدع الناس إلى نفسه، وإنما دعاهم إلى الرضا من آل محمد.⁽⁴⁰⁾ ويتكون من النصين الواردين في الرواية ميزان واحد: المشروع الممهد حقاً يعرف أن دوره هو نقل الناس إلى الإمام، لا تثبتهم عند شخص الممهد أو مؤسسته.

وحتى تتضح هنا عبارة «يدعو إلى صاحبكم» يعيد استحضار قصة زيد بن علي عليه السلام، وأنه لم يدع الناس إلى نفسه وإنما إلى «الرضا من آل محمد»، الربط بين النصين يكوّن عنده قاعدة للتمهيد: الممهد الحقيقي لا يحبس الجمهور عند شخصه، بل يجعل نفسه جسراً إلى صاحب الحق.

وهذه القاعدة تميز بين مشروعين قد يتشابهان في الخطاب، الأول يستخدم اسم الإمام ليزيد تعلق الناس بقيادته هو، والثاني يبني الناس على أن تسقط كل الوسائط حين يظهر الإمام، في الثاني تكون البيعة البشرية مؤقتة ووظيفية، وفي لحظة حضور الحجة يعود كل شيء إلى صاحبه، لذلك لا يكون نجاح الراية في استمرار ذاتها، بل في قدرتها على تسليم ما جمعته للإمام.

وهنا يبرز فارق دقيق بين الدعوة «باسم الإمام» والدعوة «إلى الإمام»، قد

40 الكليني، الكافي، رواية عيص بن القاسم عن الإمام الصادق عليه السلام، وفيها أن زيدا «لم يدعكم إلى نفسه، إنما دعاكم إلى الرضا من آل محمد».

ترفع جماعة شعارات مهدوية وتكثر من ذكر الإمام، لكنها تجعل ولاء الناس العملي منتهياً إلى قائدها أو مؤسستها، أما الميزان فهو أن يبقى صاحب الأمر هو النهاية التي تتجه إليها الحركة، هذه الفكرة ستصبح حاسمة عند الظهور، فهناك تنكشف الرايات بما تفعله عندما يصبح الإمام حاضراً لا بما قالتة عنه وهو غائب.

الفصل الرابع

اليمن في الخارطة

يرتبط اسم اليماني باليمن، ويصبح اليمن في سنة العلامات واحدًا من الأقاليم الأساسية، ولا ينصب التركيز هنا على اسم مدني يسبق الحدث، وإنما على شبكة الأوصاف، تزامن اليماني مع السفنياني والخراساني، أهدى الرايات، والدعوة إلى صاحب الأمر، ومن هذه العناصر تشخص الراية في وقتها.

دخول اليماني يجعل اليمن جزءًا مباشرًا من سنة العلامات، بعدما كان التركيز الأكبر في الإرهاصات على العراق والشام والمشرق، ولا تُحتزل معرفة اليماني في البحث عن اسم مبكر، بل في اجتماع الصفات التي جاءت بها الروايات: التزامن مع السفنياني والخراساني، وصف «أهدى الرايات»، والدعوة إلى صاحب الأمر.

هذا الأسلوب في التشخيص مهم لأن الأسماء يمكن ادعاؤها، أما شبكة العلامات فتحتاج إلى تحقق متزامن، وحين يظهر اليماني في موضعه الزمني الصحيح، لا يكون اليمن هامشًا بعيدًا، يصبح واحدًا من ثلاثة اتجاهات تتحرك في الوقت نفسه، بينما يتجه مركز التفاعل إلى العراق ثم إلى الظهور.

دخول اليمن في سنة العلامات يعطي الخارطة امتدادًا جنوبيًا يوازي حركة الشام والمشرق، فاليماني لا يظهر في فراغ منفصل عن بقية المنطقة، وإنما في اللحظة نفسها التي يتشخص فيها السفنياني والخراساني، ولذلك تصبح اليمن جزءًا من شبكة واحدة تمتد من الشام إلى العراق وإيران والحجاز، ثم تتجه جميع خطوطها نحو صاحب الأمر.

ولا يكون الاسم المدني لقائد معاصر أساسًا للتشخيص المسبق؛ بل العبرة بالأوصاف التي جاءت بها الرواية: اليمن، التزامن، أهدى الرايات، والدعوة إلى صاحبكم، هذه الطريقة تحفظ للعلامة وضوحها عند وقوعها وتمنع استهلاكها في سلسلة من التعيينات السابقة لأوانها، فالمقصود أن نعرف اليمني حين تدخل علاماته في سياقها، لا أن نصنع له اسمًا قبل أن يبدأ السياق.

الفصل الخامس

الخراساني والرايات السود

«تنزل الرايات السود التي تخرج من خراسان إلى الكوفة، فإذا ظهر المهدي عليه السلام بعثت إليه بالبيعة»⁽⁴¹⁾

الرايات الخراسانية السود لا تُقرأ هنا من خلال اللون وحده، الرواية التي يعتمد عليها مساراً: تخرج من خراسان، تنزل الكوفة، ثم إذا ظهر المهدي عليه السلام بعثت إليه بالبيعة، هذه النهاية هي التي تفصلها عن الرايات السود المذمومة التي ناقشها في باب الإرهاصات.

إن الوصول إلى البيعة يجعل حركة الخراساني ممهدة، حتى وإن لم تمنحها الرواية وصف «أهدى الرايات» الذي خصت به اليماني، وهذا يقتضي تدرجاً في الفهم: توجد راية هدى أهدى، وتوجد راية مشرقية مهتدية تنتهي إلى الإمام، وفي المقابل توجد رايات سود أخرى ضالة، الفارق يصنعه المسار والوجهة لا اللون.

الرايات السود في مادة الظهور ليست عنواناً واحداً ذا حكم واحد، ويقتضي هذا التفريق عناية خاصة لأن اللون قد يوقع القارئ في الخلط: هناك

41 الطوسي، الغيبة، طبعة مؤسسة الأعلمي، بيروت، ص 280 بحسب بيانات الشيخ؛ عن جابر الجعفي، عن الإمام الباقر عليه السلام: «تنزل الرايات السود التي تخرج من خراسان إلى الكوفة...».

رايات سود مذمومة ربط بعض أخبارها بحركات عنيفة ظهرت في المنطقة، وهناك رايات خراسانية تسير نحو الكوفة ثم تنتهي إلى البيعة لصاحب الأمر، إذن اللون وحده لا يصنع الهوية، الاتجاه والنتيجة هما اللذان يحددان الراية.

وهذا التفريق يعيدنا إلى قاعدة الباب كله: الراية تُقرأ بمسارها، الرايات الخراسانية تأتي من المشرق، تدخل في سباق نحو الكوفة، ثم لا تتوقف عند مشروعيها حين يظهر المهدي عليه السلام، بل تبعث إليه بالبيعة، هذه النهاية هي أهم ما يميزها في هذا المسار، لأنها تجعل القوة المشرقية قوةً تهديدية لا غايةً مستقلة.

الفصل السادس

من رجل قم إلى الخراساني

ولا يبدأ مسار المشرق في سنة العلامات، بل له تاريخ سابق يمر بالثورة الإيرانية وبالرواية التي تتحدث عن رجل من أهل قم يجتمع معه قوم كزبر الحديد.⁽⁴²⁾ الثورة عنده ليست هي الخراساني، وإنما مرحلة تأسيسية في طريق طويل ينتهي إلى راية الخراساني القريبة من الظهور.

لا يبدأ مسار المشرق هنا في يوم خروج الخراساني، هو يعود إلى رواية «رجل من أهل قم يدعو الناس إلى الحق، يجتمع معه قوم كزبر الحديد»، ويطبقها على الإمام الخميني والبيئة الثورية التي قادت إلى انتصار الثورة الإيرانية، كما يضم إليها رواية المشرقيين الذين يطلبون الحق ثم لا يدفعون ما بأيديهم إلا إلى صاحبكم.

ومن جمع الروایتين يبني خطأ تاريخياً: حركة في المشرق تبدأ قبل سنة العلامات بزمان، تمر بقيام دولة وتحولات داخلية وامتحانات، ثم تنتهي في المرحلة القريبة إلى راية الخراساني، فالخميني ليس الخراساني، والثورة ليست الراية الأخيرة، وإنما هما من مقدمات المسار الذي سيستمر حتى زمن الظهور.

42 المجلسي، بحار الأنوار، ج 57، ص 216، ح 37؛ عن الإمام الكاظم عليه السلام في «رجل من أهل قم» و«قوم كزبر الحديد»، تطبيق الرواية على الإمام الخميني من شرح الشيخ.

هذه النظرة تشرح لماذا ويتكرر أن وصف غير المعصوم بالدعوة إلى الحق لا يجعله معصومًا، المقصود أن هناك اتجاهًا عامًا نحو الحق والتمهيد، بينما الكمال المطلق لا يكون إلا مع الإمام، وبذلك تبقى الغاية النهائية للخط الشرقي هي البيعة لصاحب الأمر.

ومسار المشرق طويل، ولا يبدأ فجأة في رجب العلامات، من هنا تأتي أهمية رواية «رجل من أهل قم» ورواية المشرقيين الذين يطلبون الحق، فهو يقرأ الثورة الإيرانية بوصفها بداية تاريخية لحركة تتراكم فيها عناصر القوة والتنظيم والهوية السياسية إلى أن تصل في آخر الطريق إلى مرحلة الخراساني، بهذا الفهم لا يكون «رجل قم» هو الخراساني نفسه، بل حلقة مبكرة في خط المشرق.

والفارق بين البداية والنهاية مهم حتى لا تختلط الشخصيات والأزمنة، الثورة حدثت قبل زمن العلامات المتزامنة، بينما الخراساني يظهر مع السفياي واليهاني، لذلك تُستخدم الروايات لتكوين «مسار» لا لتسمية رجل واحد بكل الألقاب، ومن الناحية الكتابية يشرح هذا المسار كيف يمكن لقوة مشرقية أن تكون موجودة ومتنامية قبل عقود، ثم تتغير قياداتها وصورها حتى تصل إلى الشخصية التي تسميها الروايات بالخراساني.

الفصل السابع

الخراساني والسفياي نحو الكوفة

حين يظهر الخراساني يبدأ المسار العسكري نحو العراق، هو يأتي من المشرق، والسفياي من جهة الشام، ويستبقان إلى الكوفة كفرسي رهان، وفي الوقت نفسه يكون اليماني قد تشخص من اليمن، وهكذا تتحول المنطقة كلها إلى حركة متزامنة، ويصبح رجب بوابة المرحلة الزمنية التالية.

عندما يعود هذا المشهد في باب المشرق تتغير زاوية النظر، في باب العراق كان التركيز على الكوفة بوصفها الهدف، أما هنا فالمهم أن حركة الخراساني لا تبقى داخل إيران أو خراسان، بل تعبر نحو العراق في التوقيت نفسه الذي تتحرك فيه القوة السفيايية من الجهة الأخرى.

صورة «فرسي رهان» تمنح المسار سرعة وتنافساً، ومن فوق هذا السباق توجد راية ثالثة، هي اليماني، متشخصة في الزمن نفسه، ولذلك يصبح رجب نقطة تجمع إقليمي: ثلاث رايات، ثلاثة اتجاهات، وحركة تتسارع نحو قلب منطقة الظهور، بهذا يتهياً المشهد للانتقال من الجغرافيا إلى التقويم.

عند تحرك الخراساني والسفياي نحو الكوفة تلتقي خيوط كان الكتاب يتابعها منفصلة: الشام والمشرق والعراق، الكوفة ليست محطة عرضية، هي الهدف الذي يجعل الرجلين «كفرسي رهان»، هذه الصورة تعطي معنى السرعة والتزامن والمنافسة، وتبين أن العراق في تلك المرحلة لم يعد يعيش أزمنة الداخلية وحدها، بل أصبح ميدان وصول قوتين إقليميتين من جهتين متقابلتين.

وفي الوقت نفسه يكون اليماني حاضراً في السنة نفسها، وهو ما يجعل المشهد أوسع من سباق عسكري ثنائي، فالرايات الثلاث تتحرك في محيط واحد بينما يقترب الظهور، ومن هنا تزداد أهمية البصيرة: ليس كل من يقاتل السفيناني صاحب الراية الأهدى، وليس كل قوة من المشرق هي اليماني، الروايات تمنح كل خط اسمه ووظيفته، ويجب أن تبقى هذه الفروق واضحة.

الفصل الثامن

بنو فاطمة والمنهج الزهرائي اليماني

وتعود هنا الرواية التي تذكر «من اجتمعت بنو فاطمة معه» ثم تتصل بـ رجب والسفياني، ويقرأ «بنو فاطمة» في معنى ولائي يتجاوز مجرد النسب، ويربطه بالمنهج الزهرائي اليماني، أي الاتجاه الذي ينتهي إلى فاطمة وأهل بيتها وصاحب الأمر، ولا يصنع لنفسه مركزاً مستقلاً عنهم.⁽⁴³⁾

وعند الحديث عن «بنو فاطمة» في بعض نصوص التحذير والاجتماع لا يقصر المعنى على شجرة النسب، بل يقرأه ولائياً: الذين تنتهي وجهتهم إلى فاطمة الزهراء وأهل بيتها وصاحب الأمر، ومن هنا يأتي التعبير عن «المنهج الزهرائي اليماني»؛ أي منهج الولاء الذي لا يفصل عن الإمام ولا يصنع مرجعية نهائية في مقابله.

هذا التفسير ينسجم مع قاعدة «يدعو إلى صاحبكم»، فالزهرائية هنا ليست شعاراً وجدانياً فحسب، بل اتجاه عملي في البيعة والطاعة، كل حركة تُقاس بمدى اتصالها بصاحب الأمر، ولذلك ترتبط الهوية الزهرائية بالاستعداد لترك كل راية عند حضور الإمام، مهما كانت محبوبة أو قوية قبل ذلك.

43 رواية في التحذير من الخروج قبل وضوح الأمر، وفيها: «ألا مع من اجتمعت بنو فاطمة معه...، وإذا كان رجب... وكفاكم بالسفياني علامة»، أوردها الشيخ في سياق وظيفة المؤمن والرايات.

حين يُستعمل هنا تعبير «المنهج الزهرائي اليماني» فإنه يريد أن يربط حركة الهدى بجذرها الولائي: فاطمة الزهراء عليها السلام وأهل بيتها وصاحب الأمر من ولدها، ولهذا يقرأ بعض تعبيرات «بني فاطمة» قراءةً تتجاوز النسب البيولوجي إلى الاجتماع على خط فاطمي ينتهي بالإمام، فالمعيار ليس أن يحمل الإنسان اسمًا هاشميًا أو فاطميًا، بل أن تكون حركته في الاتجاه الذي تريده العترة.

وتخدم هذه الفكرة هدفًا آخر في الكتاب: منع الراية المهدوية من التحول إلى قومية أو حزبية، اليماني ليس أهدي لأنه يماني من حيث الجغرافيا وحدها، بل لأن رايته تدعو إلى صاحبكم، والخراساني لا تُعرف قيمته لأنه فارسي أو مشرقي، بل لأنه ينتهي إلى البيعة، وبذلك يبقى الانتماء الأعلى في الخارطة للإمام، وما عداه من أسماء البلدان والأنساب وسائل للتعريف لا غايات للولاء.

الفصل التاسع

الراية تعرف بوجهتها

يمكن تلخيص الباب كله في قاعدة: الراية تعرف بوجهتها، السفيناني يقف في الاتجاه المضاد للمشروع، والخراساني يتحرك في خط المشرق حتى البيعة، واليمني يحمل أهدي الرايات لأنه يدعو إلى صاحب الأمر، وفي لحظة الظهور تكشف كل راية حقيقتها: هل تسلم الأمر لصاحبه أم تريد أن يبقى الناس عندها؟

بعد كل التفاصيل يمكن جمع الباب في سؤال واحد: أين تنتهي الراية؟ السفيناني يقود في الاتجاه المضاد، والخراساني يتحرك من المشرق حتى الكوفة وتنتهي راياته إلى البيعة، واليمني يحمل أهدي الرايات لأنه يدعو إلى صاحبكم، بهذه المقارنة تصبح الوجهة معيارًا مختصر كثيرًا من الالتباس.

والوجهة لا تُقاس بالكلام في أول الطريق فقط، بل بما تصنعه الراية عند حضور الإمام، هل تسلم له الناس والقوة والقرار، أم تحاول الاحتفاظ بما بنته؟ لهذا فإن التمهيد الحقيقي يحمل في داخله قابلية الزوال أمام صاحب الحق، وكل مشروع لا يستطيع أن يتخلى عن ذاته في تلك اللحظة لم يفهم معنى التمهيد من الأصل.

حين نجمع ما سبق يتبين أننا لسنا أمام «قائمة رايات» بقدر ما نحن أمام ميزان، السفيناني تُعرف رايته بعوائها واتجاه حركتها، واليمني تُعرف بأنها أهدي وتدعو إلى صاحبكم، والخراساني تُعرف بمسارها من المشرق إلى

الكوفة ثم البيعة، هذه الأوصاف تجعل الوجهة أهم من الشعار؛ فقد تشابه الألوان والكلمات، لكن النهاية تكشف الحقيقة.

ولهذا فإن السؤال الذي ينبغي أن يرافق المؤمن ليس: من يرفع أكثر الشعارات المهدوية؟ بل: إلى أين يأخذ الناس؟ هل يجعلهم مستعدين للتسليم للإمام، أم يربطهم بمشروع لا يعرف كيف يتنازل عن نفسه؟ إن الراية التي تمهد فعلاً تحمل في داخلها استعدادها للانتهاء عند صاحب الأمر، وما إن يظهر حتى تتحول وظيفتها من القيادة المستقلة إلى النصرة والطاعة.

الباب السادس

رجب العلامات وما بعده

من اجتماع الرايات الثلاث
إلى الصيحة السماوية

الفصل الأول

حين تنتقل الخارطة من العقود إلى الأشهر

منذ بداية الكتاب كانت حركة الأحداث واسعة المدى، قيام دول وتحولات سياسية وحروب امتدت عقودًا، لكن عند رجب تتغير سرعة الأحداث، تشخص السفيناني واليمني والحراساني، وتصبح الأشهر نفسها جزءًا من قراءة الخارطة.

من بداية الكتاب كانت الأزمنة واسعة: عقود من العلو الإسرائيلي، ومسارات بدأت في 1979، وتحولات عراقية بعد 2003، وفتنة شامية منذ 2011، لكن عند رجب تتبدل وحدة القياس نفسها، لم يعد القارئ يتبع أجيالًا ومسارات طويلة، بل علامات تتقارب داخل سنة واحدة، وتصبح الأشهر محطات ذات معنى داخل الروايات.

هذا التغير في السرعة هو أحد أوضح ملامح الخارطة هنا، فالسفيناني واليمني والحراساني يتشخصون معًا، ثم يأتي شهر رمضان بعلامته المسموعة، ثم تتحرك الأحداث نحو الحجاز وذو الحجة، حتى يصل الفاصل إلى خمس عشرة ليلة، لذلك يمثل شهر رجب عتبة الانتقال من زمن الإرهاصات إلى زمن العد التنازلي داخل السنة المعلومة بالعلامات.

الانتقال من العقود إلى الأشهر ليس مجرد تغيير في طريقة سرد الكتاب، بل هو جزء من معنى العلامات نفسها، الإرهاصات يمكن أن تمتد أجيالًا: قيام دولة، سقوط نظام، حرب طويلة، تغير حدود أو موازين قوة، أما عند

تشخص الرايات الثلاث، فإن الروايات تبدأ في وضعنا داخل سنة واحدة تتلاحق فيها الأحداث، وهنا يصبح الزمن عنصراً في التعرف على المرحلة.

ويعطي هذا الانتقال للقارئ إحساساً بأن الخارطة تضيق، ما كان في الباب الثاني ممتداً من منتصف القرن العشرين إلى الحاضر، يصبح هنا موزعاً على شهر رجب وشهر شعبان وشهر رمضان، ثم سيصل في شهر ذي الحجة إلى خمس عشرة ليلة، وبهذا التدرج يتضح أن قرب الظهور لا يعرف من الشعور النفسي فقط، بل من تلاحق علامات محددة عندما تبدأ سلسلتها.

الفصل الثاني

كنظام الخرز

«إنما هو كنظام الخرز يتبع بعضه بعضاً»⁽⁴⁴⁾

ويتضح هنا هذه الصورة بأن الأحداث تدخل بعد بداية السلسلة في تتابع مترابط، هلاك العباسي وخروج السفيناني وقتل النفس الزكية ليست حوادث معزولة، بل حبات في نظام واحد، ومع تقدم السنة تضيق الفواصل حتى نصل في آخر الطريق إلى أيام وليال معدودة.

تشبيه الأحداث بـ«نظام الخرز» شديد الدلالة، فالخرزات منفصلة في الشكل لكنها مربوطة في خيط واحد، وإذا انفرط النظام تبعت الواحدة الأخرى، وبذلك يتضح أن العلامات القريبة لا ينبغي تفكيكها: هلاك في الحكم، وخروج السفيناني، وحركة الرايات، والصيحة، والنفس الزكية، كلها تدخل في سلسلة إذا بدأت أخذت تتتابع بسرعة.

وهذا يختلف عن الإرهاصات التي قد تفصل بينها سنوات طويلة، في نظام الخرز يصبح كل حدث مؤشراً على أن الخيط يتحرك، لا قصة مستقلة، ومن هنا تتزايد قيمة ترتيب الروايات، فالقارئ لا يسأل فقط «هل وقع هذا؟» بل «أين يقع بالنسبة إلى ما قبله وما بعده؟».

44 النعاني، الغيبة، طبعة أنوار الهدى، قم المقدسة، ص269، الحديث 21؛ عن محمد بن الصامت، عن الإمام الصادق عليه السلام، وفيه: «إنما هو كنظام الخرز يتبع بعضه بعضاً».

صورة الخرز دقيقة، فالحبات المنفردة قد تكون متباعدة ما دامت خارج الخيط، لكن إذا نُظمت تبعت الواحدة الأخرى، وتشير هذه الصورة إلى مرحلة تبدأ فيها العلامات المتقاربة: حدث يفتح الطريق لما بعده، ثم تتسارع السلسلة بحيث لا يعود من السهل فصل كل علامة عن الأخرى، وهذا يختلف عن الإرهاصات التي قد يقع بينها زمن طويل.

ومن هنا فإن قيمة الحدث لا تكون في حجمه الإعلامي وحده، بل في موقعه من النظام، قد يقع حدث ضخم لا علاقة له بسلسلة العلامات، وقد تقع علامة محددة تفتح باباً لما بعدها، المؤمن الذي عرف الروايات ينظر إلى الترابط لا إلى الضجيج، يسأل: هل جاءت هذه الحبة في الخيط الذي وصفته النصوص؟ وهل تبعها ما ينبغي أن يتبعها؟

الفصل الثالث

شعبان اتساع للحركة

يقع شهر شعبان بين شهر رجب الرايات وشهر رمضان الصيحة، وهو شهر تتسع فيه حركة ما بدأ في رجب، السفيناني يتحرك، والخراساني واليماني في المشهد، والعراق والشام يدخلان في قدر أكبر من التداخل، ثم يأتي شهر رمضان بعلامة تختلف عن حركة الجيوش: نداء يسمعه الناس .

ولا يحمل شهر شعبان علامة منفردة بمستوى شهر رجب أو شهر رمضان، لكنه يمثل مساحة تتسع فيها الحركة التي بدأت في رجب، فالرايات لم تعد أسماء في الروايات، أصبحت قوى متحركة، والعراق والشام والمشرق واليمن يدخلون في تداخل أسرع، وتتضح آثار خروج السفيناني خارج موضع بدايته .

وظيفة شهر شعبان إذن انتقالية، وهو يذكر القارئ بأن الخارطة لا تقفز من لحظة الخروج إلى الصيحة من دون تطور، بينهما شهر يتحرك فيه المسرح السياسي والعسكري، ثم يأتي شهر رمضان لينقل نوع العلامة من حركة تُرى على الأرض إلى نداء يسمعه الناس على نطاق واسع .

الفصل الرابع

الصيحة فاي شهر رمضان

في شهر رمضان تدخل القضية المهدوية مرحلة عامة لا تبقى محصورة في جغرافيا المنطقة، وتعرض الروايات الصيحة بوصفها علامة كبرى ترتبط باسم القائم عليه السلام.⁽⁴⁵⁾ وفي المقابل يأتي نداء مضاد، فيبقى الامتحان قائماً رغم عظمة الحدث.

«يعرفها من كان سمع بها قبل أن تكون»⁽⁴⁶⁾

هذه العبارة تلخص وظيفة التعليم قبل الفتنة، الذي يعرف الروايات قبل الصيحة لا يفاجأ بوجود نداء مضاد، ولا يجعل التضليل سبباً لنسف المعرفة السابقة، ومن هنا تكون سنوات الغيبة وقت إعداد، لا فراغاً ينتظر فيه الإنسان أن يبدأ التعلم عند لحظة الحدث.

مع الصيحة يحدث تحول نوعي: لم تعد القضية مقصورة على من يتابع أخبار العراق والشام واليمن، الروايات المعتمدة هنا تقدم النداء كعلامة عامة ترتبط باسم القائم عليه السلام، لذلك يدخل مشروع الإمام

45 الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج2، ص650، باب علامات خروج القائم، ح6؛ عن الإمام الصادق عليه السلام في الصيحة في شهر رمضان.

46 النعماني، الغيبة، ص174 تقريباً، الحديث 31؛ عن هشام بن سالم، عن الإمام الصادق عليه السلام في الصيحتين، وفيها: «يعرفها من كان سمع بها قبل أن تكون».

إلى وعي الناس بدرجة لم تكن موجودة في مراحل الرايات، ويصبح الامتحان أكثر مباشرة.

لكن عظمة الصيحة لا تلغي الفتنة، فهناك نداء مضاد يثير الشك، وهذه الثنائية هي التي تعطي العلامة وظيفتها التربوية، لو كان كل من يسمع الصوت سيهتدي تلقائياً لما كانت هناك حاجة إلى معرفة سابقة، أما وجود التضييل في اللحظة نفسها فيجعل ما تعلمه المؤمن في سنوات الغيبة حاسماً.

ومن هنا تتصل الصيحة بالبواب الأول اتصالاً مباشراً: من عرف حديث العترة قبل أن تكون، يدخل الحدث وهو يعرف أن للصوت الصادق علامة وأن وراءه محاولة تشويش، لا يبدأ بناء ميزانه في ليلة الصيحة، بل يستعمل في تلك الليلة ميزاناً بناه قبلها بسنوات.

وتزداد أهمية الصيحة لأنها تنقل المعرفة المهدوية من دائرة المهتمين إلى دائرة عامة، قبلها كان تشخيص الأحداث يحتاج متابعة دقيقة للعراق والشام واليمن والمشرق، أما عند النداء فاسم القائم يدخل سمع الناس على نطاق واسع، ومع ذلك لا تتحول اللحظة إلى نهاية للاختبار، لأن النداء المضاد يأتي ليصنع التشويش، وهنا يظهر مقصد تكرار أحاديث الصيحة منذ بداية السلسلة: من تعلم قبل الحدث لا تكون دهشته أقوى من معرفته، بل يعرف أن الفتنة نفسها كانت جزءاً مما أخبر به.

الفصل الخامس

نداء عام باسم القائم

«عام، يسمع كل قوم بلسانهم»⁽⁴⁷⁾

في رواية زرارة يكون النداء باسم القائم عامًا، يسمعه كل قوم بلسانهم، وهنا يصبح اسم الإمام حاضرًا في العلامة نفسها، لقد انتقلت الخارطة من رايات السفيناني واليمني والخراساني إلى خطاب يرتبط مباشرة بصاحب الأمر، لكن الناس ما زالوا يختلفون بسبب النداء الآخر وحركة التضمين.

حين يسأل زرارة: أهو نداء خاص أم عام؟ يأتي الجواب بأنه عام «يسمع كل قوم بلسانهم»، ويدل هذا العموم على انتقال القضية المهدوية من نطاق محلي إلى أفق إنساني واسع، الاسم الذي كانت تعرفه طائفة من المؤمنين يصبح موضوعًا يسمعه الناس بلغاتهم.

غير أن العموم لا يعني وحدة الاستجابة، فالناس يحملون معهم معتقداتهم ومصالحهم وولاءاتهم السابقة، ثم يأتي نداء إبليس ليغذي الشك، لذلك يصبح الصوت نفسه ساحة فرز: من بنى معرفته على الحديث يثبت، ومن كان ينتظر مجرد معجزة حسية قد يتردد حين يسمع الصوت المضاد.

47 الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج2، ص650-651، باب علامات خروج القائم، ح8؛ عن زرارة، عن الإمام الصادق عليه السلام في النداء باسم القائم وأنه عام يسمعه كل قوم بلسانهم، ثم نداء إبليس للتشكيك.

بهذا المعنى ليست الصيحة إلغاءً للعقل، بل اختباراً له بعد أن أُعطي علامة عظيمة، إنما المؤمن المهيأ هو الذي يجمع السماع مع المعرفة، ولا يسمح للصحيح اللاحق أن يمحو ما عرفه قبل الحدث.

عمومية النداء تعني أن القضية المهدوية تخرج من دائرة المختصين والمتابعين إلى المجال الإنساني الواسع، في مراحل سابقة قد لا يعرف تفاصيل السفياي أو الخراساني إلا من يتابع المنطقة، أما النداء «يسمع كل قوم بلسانهم» فيجعل اسم القائم حاضراً أمام جماعات وشعوب متعددة، هكذا تتغير طبيعة المعرفة: ما كان خبراً في كتب الرواية يصبح حدثاً عاماً.

لكن العمومية لا تعني وحدة الموقف، الرواية نفسها تتحدث عن نداء آخر يثير الشك، ومن هنا تبقى حرية الاختيار والامتحان، وهذا من أكثر المواضع التي يتأكد فيها أن المعجزة لا تعفي من المعرفة، حتى الحدث الذي يسمعه الناس جميعاً يحتاج إلى ميزان يفسره، ولذلك فإن وظيفة السنوات السابقة ليست انتظار الصوت، بل إعداد النفس لفهمه عندما يأتي.

الفصل السادس

المعرفة قبل السماع

«يعرفه الذين كانوا يروون حديثنا ويقولون إنه يكون قبل أن يكون،

ويعلمون أنهم هم المحقون الصادقون»⁽⁴⁸⁾

ولا تبدأ معرفة المؤمن بالإمام ليلة الصيحة؛ المعرفة السابقة بحديثهم هي التي تصنع التمييز، وكلما اقترب الظهور أصبحت الثقافة المهدوية التي بناها الإنسان في سنوات الهدوء أكثر قيمة، لأنها تمنحه ميزاً داخل الضجيج.

الرواية التي تقول إن الذين يعرفون النداء هم «الذين كانوا يروون حديثنا ويقولون إنه يكون قبل أن يكون» تجعل التعليم المهدوي جزءاً من الاستعداد للنجاة من التضييل، المعرفة ليست بعدية، لا ينتظر الإنسان وقوع الحدث ثم يقرر ماذا تعني الأصوات، هو يدرس الصورة قبلها، حتى تكون لديه ذاكرة روائية يقارن بها ما يسمع.

ولهذا تتأكد في ختام الكتاب أهمية نشر معرفة الإمام، الأسرة التي تعرف هذه النصوص ستدخل زمن الصيحة بطريقة تختلف عن أسرة لا تعرف إلا الأخبار المتداولة، والأمر نفسه ينطبق على المجتمع؛ كل درس صحيح يُنشر قبل الفتنة يمكن أن يتحول يومها إلى نقطة ثبات لشخص أو جماعة.

48 النعماني، الغيبة، ص 172 تقريباً، الحديث 28؛ عن زرارة، عن الإمام الصادق عليه السلام: «يعرفه

الذين كانوا يروون حديثنا ويقولون إنه يكون قبل أن يكون...».

إنها فكرة بسيطة وعميقة في الوقت نفسه: المستقبل الذي أخبر به الأئمة لا يُدرس لمجرد أن نعرفه، بل لأن معرفته تعيّر موقفنا حين يأتي.

قول الإمام عليه السلام إن الذي يعرف الصادق هم الذين كانوا يروون حديثهم قبل وقوع الحدث يضع للثقافة المهدوية وظيفة عملية حاسمة، الرواية لا تتمحور مجرد جمع المعلومات، بل تبين أن المعرفة السابقة تصبح أداة نجاة في ساعة الاختلاط، فمن عرف أن هناك نداء حق ونداء تضليل لا يتعامل مع الثاني على أنه مفاجأة تهدم كل ما سبق.

وهذا يفسر الإصرار على «اعرف إمامك» قبل الدخول في تفاصيل العلامات، إذا كانت معرفة العلامة نفسها تحتاج إلى حديث العترة، فمعرفة صاحب العلامة أولى، المؤمن لا ينتظر شهر رمضان ليقرر من هو إمامه، وإنما يدخل شهر رمضان وقد استقرت عنده الحجة والولاية، ثم يضع الصوت داخل هذه المعرفة، عندئذ تصبح العلامة مؤيدة للمعرفة لا مؤسسة لها من الصفر.

الفصل السابع

آيات شهر رمضان

وتعرض الروايات روايات أخرى عن آيات كونية في شهر رمضان، ويورد بعضها ضمن صورة الشهر الذي تتكاثر فيه العلامات.⁽⁴⁹⁾ وجود هذه الأخبار يزيد إحساس التسارع، ويجعل شهر رمضان مختلفاً عن الأشهر السابقة التي غلب عليها تحرك الرايات على الأرض، لكن مركز شهر رمضان في البناء يبقى النداء والصيحة، لأنها العلامة التي تدخل اسم القائم في وعي الناس على نطاق عام لأن هذا الحدث يمس قضية المعرفة مباشرة ويصل إلى الناس جميعاً، أما الآيات الأخرى فتتجمع حوله لتؤكد أن الزمن دخل طوراً استثنائياً، وأن العالم لم يعد في إيقاع الإرهاصات البعيدة.

49 الكليني، الكافي، ج8، ص212، ح258؛ وانظر: المفيد، الإرشاد، ج2، ص374؛ والطوسي، الغيبة، ص444، ح439؛ في بعض الآيات الكونية في شهر رمضان.

الفصل الثامن

من رجب إلى شهر رمضان

في رجب تشخص الرايات، وفي شعبان تتسع الحركة، وفي شهر رمضان ينتقل الامتحان من تمييز الراية إلى تمييز الصوت، وفي الحالتين يبقى الأصل واحدًا: معرفة الإمام قبل أن تصبح العلامة نفسها ساحة اختلاف.

إذا جمعنا الشهرين ظهرت حركة واضحة: في رجب تشخص القوى، وفي ما بعده تتسع حركتها، وفي شهر رمضان ينتقل الخطاب إلى اسم الإمام، أي إن الخارطة تنتقل من سؤال «أي راية؟» إلى سؤال «أي نداء؟»، وفي الحالتين يحتاج المؤمن إلى الميزان نفسه.

وهنا يتبين أن الزمن وحده لا يكفي، قد يعرف الإنسان أن الصيحة في شهر رمضان لكنه لا يعرف كيف يميزها، وقد يعرف أن الرايات في رجب لكنه لا يعرف وجهتها، لذلك تعود هذه المرحلة دائمًا إلى المعرفة: قيمة التقويم أنه يضعك في موضعك، وقيمة معرفة الإمام أنها تحبرك ماذا تفعل في ذلك الموضع.

إذا نظرنا إلى الأشهر الثلاثة كقطعة واحدة ظهر التدرج بوضوح: رجب يشخص القوى، وشعبان يوسع حركتها، وشهر رمضان ينقل اسم الإمام إلى ساحة عامة، وهذا يعني أن القضية تنتقل من الجغرافيا والسياسة والعسكر إلى الوعي المباشر للناس، لم تعد الخارطة فقط خريطة جيوش، بل أصبحت خريطة موقف وعقيدة.

وفي هذه المرحلة تتضاعف قيمة ما بناه المؤمن في زمن الهدوء، قبل رجب كان يحفظ نفسه من الرايات المشتبهة، وفي رجب يبدأ تمييز الرايات، وفي شهر رمضان يميز الصوت، الأداة واحدة في المراحل كلها: معرفة الإمام وحديث العترة، وهذا الترابط هو الذي يجعل الباب الزمني امتداداً طبيعياً للباب الأول لا موضوعاً منفصلاً عنه.

الباب السابع

الطريق المباشر إلى الظهور

من شهر رمضان إلى ذي الحجة والنفس
الزكية

الفصل الأول

حين تضيق المسافة

بعد شهر رمضان تبدأ الخارطة بالتوجه إلى الحجاز ومكة، الفواصل التي كانت تقاس بالسنوات ثم بالشهور تبدأ بالانكماش أكثر، ويصبح السؤال عن المسافة بين العلامة والقيام سؤالاً واقعياً داخل تسلسل الروايات.

بعد شهر رمضان لا تعود الخارطة إلى المدى الطويل، لقد دخلنا في الجزء الذي تنكمش فيه الفواصل باستمرار: من شهور إلى أسابيع ثم إلى ليالٍ، وهذه الحركة هي ثمرة «نظام الخرز»؛ كلما تقدمت السلسلة صار الحدث التالي أقرب، حتى يصبح قتل النفس الزكية على مسافة خمس عشرة ليلة من قيام القائم.

المهم هنا أن ضيق المسافة لا يغير أصل المنهج، لا يتحول المؤمن من التثبت إلى الفوضى لأنه اقترب، بل تصبح الحاجة إلى وضوحه أكبر، ففي الأيام القريبة تزداد الأخبار والادعاءات والحركة، ومن لم يبين ميزانه في الزمن الهادئ قد لا يجد وقتاً لينيه تحت الضغط.

بعد شهر رمضان لم نعد أمام سلسلة مفتوحة لا يعرف القارئ مقدار ما بينها، بل أمام طريق يتجه بصورة متزايدة إلى مكة، الحجاز يدخل مركز الأحداث، وتبدأ العلامات التي ترتبط مباشرة بصاحب الأمر لا بالممهدين وحدهم، هذه هي لحظة التحول من «علامات الظهور» إلى «الطريق المباشر إلى الظهور».

والفارق يظهر في اللغة الزمنية نفسها، قبل ذلك كانت الروايات تتحدث عن سنوات وشهور، أما مع النفس الزكية فتذكر خمس عشرة ليلة، كلما اقتربت الخارطة من الإمام تقل المسافة بين الخبر وظهور صاحبه، فيشعر القارئ أن الحبات الأخيرة من نظام الخرز أصبحت متلاصقة.

إن ضيق المسافة هنا ليس مجرد انتقال حسابي من الشهور إلى الأيام، بل تغير في طبيعة السرد كله، في الأبواب السابقة كان الباحث يستطيع أن يقف طويلاً عند تحولات تمتد سنوات وعقوداً، أما الآن فإن الأحداث تتلاحق بحيث تصبح كل علامة مدخلاً مباشراً إلى التي بعدها، ولهذا ينتقل التركيز إلى الحجاز، فبعد أن كانت مكة حاضرة في الإرهاصات عبر العائد الأول، تعود الآن بوصفها المكان الذي ستنتهي إليه الغيبة العامة وتبدأ فيه حركة الإمام العلنية.

الفصل الثاني

الحجاز يدخل مركز الخارطة

كان الحجاز حاضرًا في الإرهاصات عبر خبر العائد الأول، لكنه الآن يدخل المرحلة القريبة من الظهور، مكة هي موضع قيام الإمام وإعلانه، ولذلك تصبح الأحداث التي تقع فيها في شهر ذي الحجة جزءًا من الطريق المباشر إلى الظهور فتنتقل العين إلى مكة وما يجري فيها من أحداث ذي الحجة.

هذا الانتقال ليس قطعًا مع الأبواب السابقة، جيش السفيناني سيصل إلى الحجاز، والنفس الزكية مرتبطة مباشرة بالإمام، والعائد الآخر يعيد خيطًا بدأ منذ الإرهاصات، هكذا تلتقي المسارات الطويلة في مكان واحد، وتصبح مكة نقطة جمع لما بدأ في جغرافيا متعددة، فقد كان الحجاز حاضرًا منذ الإرهاصات في خبر العائد الأول، لكنه لم يكن يومها مركز السلسلة، الآن يتغير موقعه، مكة ستصبح موضع الرسالة وموضع الدم وموضع الظهور والبيعة، والبيداء ستصبح موضع انكسار الجيش المتجه إلى الإمام، وهكذا تنتقل ثقل الخارطة من الشام والعراق إلى الحرم قبل أن تعود بعد ذلك إلى الكوفة.

هذه العودة إلى مكة بعد عقود من حادثة العائد الأول تربط بداية بعيدة بنهاية قريبة، لكنه لا يخلط بينهما، التشابه في المكان لا يلغي اختلاف السياق، العائد الآخر يأتي بعد اكتمال شبكة العلامات، ولذلك تكون مكة في هذه المرحلة جزءًا من الظهور نفسه لا مجرد إرهاب مكرر.

دخول الحجاز إلى مركز الخارطة لا يلغي العراق والشام والمشرق، بل

يجمع آثار ما جرى فيها حول مكة، السفيناني الذي خرج من الشام سيرتبط
بجيش يتجه إلى الحجاز، والرايات التي تحركت في المشرق ستنتهي إلى البيعة،
والصبيحة التي عمت الناس مهدت لذكر القائم علناً، لذلك تصبح مكة نقطة
التقاء معنوية للأحداث السابقة، ويصبح ما يقع في ذي الحجة مرحلة لا
يمكن فهمها من دون كل ما تقدم.

الفصل الثالث

العلامات الخمس

«قبل قيام القائم خمس علامات محتومات: الياني، والسفياني، والصيحة،
وقتل النفس الزكية، والخسف بالبيداء»⁽⁵⁰⁾

هذه الرواية تجمع خطوطاً سبق أن درسناها: السفياني من الشام، واليمني من اليمن، والصيحة في شهر رمضان، والنفس الزكية في مكة، والخسف المرتبط بجيش السفياني في الحجاز، وهي تؤكد أن هذه الأحداث ليست قصصاً مستقلة، بل منظومة تلتقي حول قيام القائم.

الرواية التي تجمع اليمني والسفياني والصيحة وقتل النفس الزكية والخسف بالبيداء تعمل كخلاصة مركزية للخارطة، فثلاثة من هذه العناوين سبق شرحها بالتفصيل، والرابع ينقلنا إلى مكة، والخامس يقع في الحجاز مع جيش السفياني، ولذلك تكشف الرواية عن وحدة الحدث المهدوي رغم تعدد البلدان.

كما أن ترتيب دراستها في الكتاب يجعل القارئ يرى كيف تنتقل العلامات من الرايات إلى الصوت إلى الدم ثم إلى التدخل الإلهي بالخسف، إنها ليست

50 الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج2، ص 650 تقريباً، باب علامات خروج القائم، ح7؛ عن عمر بن حنظلة، عن الإمام الصادق عليه السلام: «قبل قيام القائم خمس علامات محتومات: الياني، والسفياني، والصيحة، وقتل النفس الزكية، والخسف بالبيداء».

خمس معلومات محفوظة، بل خمس بوابات تقود كلها إلى قيام القائم، وكل واحدة منها تحمل وظيفة في تشخيص المرحلة وفي إعداد المؤمن.

الرواية التي تجمع اليماني والسفياني والصيحة وقتل النفس الزكية والخسف بالبيداء تؤدي وظيفة شديدة الأهمية: إنها تثبت أن الخطوط التي تابعها هذا الكتاب في أبواب مختلفة تنتمي إلى منظومة واحدة، اليمن والشام وشهر رمضان ومكة والبيداء ليست قصصاً متجاورة، بل علامات تتقاطع حول قيام القائم.

وحين توضع هذه الخمس معاً يظهر التوازن بين العلامات البشرية والكونية والعسكرية: رايتان، ونداء، وقتل، وخسف، هذا التنوع يمنع اختزال سنة الظهور في حرب واحدة أو صوت واحد، كما أنه يمنح المؤمن شبكة أوسع للتعرف، فكل علامة تضيء الأخرى وتضعها في موضعها الصحيح.

وجمع العلامات الخمس في رواية واحدة يمنح القارئ مفتاحاً لفهم وحدة الخارطة، فاليماني والسفياني يمثلان حركة الرايات، والصيحة تمثل العلامة المسموعة العامة، والنفس الزكية تنقلنا إلى قلب مكة، وخسف البيداء يربط الحجاز بالقوة السفينانية، إنها ليست خمس قصص متوازية، بل خطوط تتقاطع حول قيام القائم، ومن هنا تُقرأ كل علامة على ضوء الأخريات، فإذا انفصلت واحدة عن سياقها فقدت جزءاً من قدرتها على تشخيص المرحلة.

الفصل الرابع

النفس الزكية ورسول مكة

وترتبط النفس الزكية بالرجل الذي يبعثه الإمام إلى أهل مكة برسالة، فيُقتل بين الركن والمقام، الحدث يضعنا أمام رسول مرتبط مباشرة بصاحب الأمر، وفي قلب الحرم، وفي مرحلة أصبح فيها الظهور قريباً للغاية.

هنا ينتقل السرد من «من يخبر عن الإمام» إلى «صاحب الرسالة الذي سيظهر بعد أيام»، قتل الرسول لا ينهي الدعوة، بل يجعل الخارطة تقف عند عتبة حضور الإمام نفسه.

ولا تُعرض النفس الزكية كشخصية منعزلة، بل كرسول يبعثه الإمام إلى أهل مكة، وهذا التفصيل يغير دلالة الحدث، فنحن لم نعد أمام رواية عن شخص صالح يُقتل فحسب، بل أمام صلة مباشرة بين الإمام الذي يستعد للظهور وبين المجتمع المكي.

يُقتل الرسول بين الركن والمقام، أي في قلب المكان الذي سيشهد بعد ذلك ظهور صاحب الرسالة وبيعته، ولهذا يكتسب القتل معنى العتبة: الناس يواجهون في البداية من يأتيهم برسالة من الإمام، ثم لا تمضي إلا مدة قصيرة حتى يحضر الإمام بنفسه، المسافة بين رفض الرسول وظهور المرسل هي آخر مسافة تقريباً في زمن الغيبة العامة.

وتتجاوز النفس الزكية صورة الرجل الصالح المقتول إلى وظيفة الرسول، الإمام يبعثه إلى أهل مكة، فيكون وجوده دليلاً على أن صاحب الأمر قريب

من المشهد حتى قبل ظهوره العلني، الرسالة تأتي أولاً على لسان مبعوث، ثم لا يلبث صاحب الرسالة أن يظهر بنفسه، بهذا المعنى تصبح النفس الزكية آخر حلقة من حلقات التبليغ قبل الحضور.

ووقوع القتل بين الركن والمقام يضاعف دلالة الحدث، فهو لا يقع في هامش الحجاز بل في قلب الحرم، في الموضع الذي سيرتبط بعد ذلك بالبيعة، لذلك يجمع المكان بين رفض الرسالة في الأيام الأخيرة من الغيبة وبين استقبال الإمام في بداية الظهور، هذه المقابلة تمنح الفصل توتره السردي وتوضح لماذا احتلت النفس الزكية موقعاً بين العلامات الخمس.

الفصل الخامس

خمس عشرة ليلة

«ليس بين قيام قائم آل محمد وبين قتل النفس الزكية إلا
خمس عشرة ليلة»⁽⁵¹⁾

هذه من أوضح الفواصل الزمنية في الخارطة، بعد عقود الإرهاصات وسنوات التحولات وأشهر سنة العلامات، تصبح المسافة خمس عشرة ليلة، وهنا تظهر دقة ترتيب الخارطة: ليس توقيتاً مسبقاً لسنة الظهور، بل مدة جاءت في الرواية عند موضعها من السلسلة.

هذه العبارة من أكثر النصوص تحديداً للفواصل الزمنية داخل الخارطة: «ليس بين قيام قائم آل محمد وبين قتل النفس الزكية إلا خمس عشرة ليلة»، وبعد أن كان هذا الكتاب يتعامل مع عقود وسنوات، يصبح الزمن هنا قابلاً للعد بالليالي، وهذا يبين مقدار التسارع الذي دخلته السلسلة.

ولا يفتح هذا الرقم باباً لتحديد سنة الظهور من قبل وقوع العلامات، إنما قيمته تظهر عندما يقع الحدث في موضعه المعروف من السلسلة، عندئذ تكون الرواية نفسها قد أعطت المؤمن فاصلاً قصيراً، فيتحول ما كان أملاً عاماً إلى

51 الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج2، ص649، ح2؛ والطوسي، الغيبة، ص445، ح440؛ والمفيد، الإرشاد، ج2، ص374؛ عن الإمام الصادق عليه السلام: «ليس بين قيام قائم آل محمد وبين قتل النفس الزكية إلا خمس عشرة ليلة».

استعداد شديد القرب، ولذلك ترتبط الخمس عشرة ليلة بوظيفة عملية لا بفضول تقويمي.

ميزة «خمس عشرة ليلة» أنها ليست تاريخيًا يتيح للناس أن يحددوا سنة الظهور من الآن، وإنما مدة تبدأ بعد حدث متشخص: قتل النفس الزكية، الفرق جوهرى، التوقيت الممنوع يبدأ من حاضرننا ويقفز إلى الغيب، أما الرواية فتعطي المؤمن مقياسًا عندما تدخل السلسلة بالفعل مرحلتها الأخيرة.

و حين يقع الحدث يصبح معنى التسارع محسوسًا إلى أقصى درجة، الإنسان الذي عاش عقودًا يسمع عن الظهور يجد نفسه أمام مدة لا تتجاوز نصف شهر تقريبًا، لذلك ويُستعمل هنا هذا النص لبيان أن المعرفة التي أُجلت سنوات لا يمكن تعويضها بسهولة في آخر خمس عشرة ليلة، الاستعداد الحقيقي ينبغي أن يكون سابقًا.

والفارق بين هذه المدة وبين التوقيت المنهي عنه جوهرى، التوقيت يبدأ من الحاضر ويزعم تحديد سنة أو يوم لم تظهر مقدماته بعد، أما «خمس عشرة ليلة» فهي فاصلة داخل سلسلة محددة بعد وقوع علامة معينة، أي أن الرواية لا تعطي الإنسان تقويماً مفتوحاً للمستقبل، بل تعطيه معرفة بما بين حدثين عندما يدخل الزمن نفسه، ولهذا تصبح المدة شديدة الدلالة من غير أن تتحول إلى وسيلة للمغامرة بتحديد موعد مسبق.

الفصل السادس

من الرسول إلى صاحب الرسالة

في شهر ذي الحجة يأتي الرسول، ثم تُقتل النفس الزكية، ثم تدخل الأيام الأخيرة قبل المحرم، ومن هنا تتحول مكة من مدينة تنتظر الحدث إلى مكان سيظهر فيه صاحب الأمر بنفسه، لقد انتهى تقريباً زمن الحديث عن العلامة، وبدأ زمن الحديث عن الظهور.

قتل النفس الزكية ينهي تقريباً مرحلة الوسائط القرية، قبلها كانت الرايات تدعو إلى الإمام، ثم جاء النداء باسمه، ثم جاء رسول من جهته، والآن لم يبق إلا أن يظهر صاحب الأمر نفسه، بهذه الحركة تصبح اللغة الكتابية نفسها أكثر قرباً: لم نعد نتحدث عن «من يخبر عنه»، بل عمن سيحضر.

وهذا هو سر الانتقال من شهر ذي الحجة إلى المحرم، مكة التي سفك فيها دم الرسول تصبح بعد أيام مكان البيعة، والموضع بين الركن والمقام ينتقل من مشهد قتل إلى مشهد إعلان، في هذا التحول تتجمع مأساة الرفض مع بداية النصر.

تعبير «من الرسول إلى صاحب الرسالة» يلخص حركة الأيام الأخيرة، النفس الزكية يحمل خطاباً من الإمام، ثم يقتل، وبعدها لا تبقى المسافة طويلة قبل أن يتحول الإمام من الغيبة العامة إلى الحضور العلني، بهذا الانتقال تنتهي وظيفة كثير من العلامات بوصفها أخباراً عن القادم، لأن القادم نفسه يدخل المشهد.

وهذا يعطي قتل النفس الزكية معنى يتجاوز المأساة الفردية، إنه نقطة تحول في علاقة الناس بالحجة: أولاً يواجهون رسوله، ثم يواجهونه هو، ومن هنا تصبح الأيام بين الحدثين أيام فرز واستعداد، وتصبح مكة مسرحاً لانتقال كامل من زمن الوساطة إلى زمن البيعة.

ويحمل هذا الانتقال معنى درامياً وعقدياً في آن واحد، فالنفس الزكية لا تأتي بوصفها نهاية مشروع، بل رسوياً يفتح آخر مواجهة قبل حضور الإمام، قتل الرسول يكشف مقدار التوتر في مكة، ثم يأتي ظهور صاحب الرسالة ليغيّر طبيعة الموقف كله، وهكذا يصبح تسلسل الحدثين صورة مكثفة لما جرى في الكتاب: ظل الناس يسمعون عن الإمام عبر الروايات والعلامات والرايات، ثم يصلون إلى لحظة لا يعود فيها الحديث عنه حديث غائب، بل حضوراً مباشراً يطلب البيعة والطاعة.

الفصل السابع

الخارطة الزمنية الأخيرة

يمكن تلخيص الطريق كما تنتظم عناصره في الخارطة: رجب للرايات، شهر رمضان للصيحة، ثم انتقال إلى الحجاز وذي الحجة والنفس الزكية، ثم المحرم وقيام القائم، ومع كل خطوة تضيق المسافة وترداد الحاجة إلى أن تكون المعرفة قد سبقت الحدث.

وكلما صارت الخارطة أوضح زمنياً، صار المطلوب من المنتظر أوضح أيضاً: لا يؤجل المعرفة إلى رجب، ولا الخدمة إلى شهر رمضان، ولا التوبة إلى شهر ذي الحجة، وظيفة هذه المواعيد الروائية أن تنبهه إلى قيمة الاستعداد السابق، لأن آخر الطريق لا يترك وقتاً طويلاً لتكوين الإنسان من جديد، هذه الخريطة لا تجعل كل يوم بين الأشهر معلوماً، لكنها تمنح القارئ الهيكل الذي تتوزع داخله العلامات الكبرى.

وقيمة الهيكل أنه يمنع الخلط بين المراحل، الصيحة لا تأتي بعد النفس الزكية في هذا الترتيب، والنفس الزكية لا تُدفع إلى سنوات قبل الظهور، والسفياي لا يُقرأ كشخص من عصر منفصل عن اليماني والخراساني، هذا الترتيب يحفظ لكل علامة مكانها ويحول كثرة الروايات إلى قصة زمنية مفهومة.

إذا نظرنا إلى الطريق من الأعلى نرى كيف ضغطت الخارطة زمنها تدريجياً: إرهاصات على مدى عقود، ثم رجب الرايات، ثم شهر رمضان والصيحة،

ثم ذي الحجة والنفس الزكية، ثم خمس عشرة ليلة، ثم المحرم، هذا الانضباط هو الذي يمنح عبارة «كنظام الخرز» معناها العملي، وكلما قصرت الفواصل قلت مساحة التردد، ولذلك تكون السنوات السابقة هي الوقت الحقيقي لبناء المعرفة، لأن من يؤجل الاستعداد إلى آخر ليلة سيدخل أكثر مراحل الفتنة سرعة من غير رصيد سابق.

الباب الثامن

الظهور الشريف في مكة

من قيام القائم إلى اجتماع الثلاثمائة
والثلاثة عشر والبيعة

الفصل الأول

من العلامة إلى صاحبها

وصلت الخارطة الآن إلى صاحب العلامات نفسه، لم يعد الحديث عن راية تدعو إليه أو منادٍ ينادي باسمه أو رسول يذهب إلى أهل مكة من جهته، يدخل القائم عليه السلام إلى المشهد العلني، وتصبح مكة أول مسرح للانتقال من الغيبة إلى الظهور ومن المعرفة إلى البيعة.

في هذا الموضع تتغير طبيعة هذا الكتاب، طوال الأبواب السابقة كان الإمام هو الغاية التي تشير إليها العلامات: راية تدعو إليه، ورايات تبعث بالبيعة، وصوت ينادي باسمه، ورسول يخرج من جهته، أما الآن فيدخل صاحب الأمر نفسه إلى المشهد العلني، وتنتهي الغيبة العامة في صورتها التي عاشها المنتظرون.

هذه النقلة تكشف أن دراسة العلامات لم تكن غاية مستقلة، كل ما عرفناه عن السفياي واليماي والخراساني والعراق والشام لم يكن إلا طريقاً إلى هذه اللحظة، ومن هنا تصبح المعرفة التي بُنيت في الغيبة مطالبة بأن تتحول فوراً إلى طاعة وبيعة، فامتحان «من هو الإمام؟» ينتقل إلى امتحان «هل أسلم له أمري؟».

عند الدخول إلى باب مكة يتغير مركز السرد تماماً، في الأبواب السابقة كان الإمام حاضراً في الغاية والمعيار، لكن الأشخاص الذين يملؤون المشهد هم الممهدون والخصوم والرسول، الآن يظهر صاحب الأمر نفسه، فتراجع

العلامات إلى الخلف وتصبح وظيفتها أنها أوصلتنا إلى هذه اللحظة.

وهذا التحول مهم في أسلوب هذا الكتاب أيضًا لا ينبغي أن يبقى القارئ مشغولًا بالسفيا في بعد أن ظهر من كانت العلامات كلها تشير إليه، لذلك وتعود البوصلة إلى أصلها: العلامة ليست أهم من صاحبها، والراية ليست أهم من الذي تدعو إليه، عند مكة تصل المعرفة النظرية إلى امتحان الطاعة المباشرة.

الفصل الثاني

المحرم وعاشوراء

في هذا الترتيب يدخل التحول في شهر المحرم، مع تمييز بين اجتماع الإمام بنواته الأولى وبين الإعلان العام في يوم عاشوراء.⁽⁵²⁾ وهكذا يلتقي تاريخ الحسين عليه السلام بالمشروع المهدوي في شهر واحد يحمل ذاكرة المظلومية وبداية حركة إقامة العدل.

في الخارطة الزمنية المعروضة هنا يحتل المحرم موقع الإعلان، ويصل المشهد إلى يوم عاشوراء، وبهذا تجتمع في الوجدان المهدوي ذاكرة الحسين عليه السلام مع بداية حركة القائم الذي يطلب بثارات الأنبياء والأوصياء ويقيم مشروع العدل.

ولا تُعرض عاشوراء كرمز عاطفي منفصل عن الحدث، بل كصلة بين المظلومية والمشروع، الانتظار الحسيني الذي كان يربي المؤمن على الولاء والثبات يجد نفسه أمام مرحلة يتحول فيها ذلك الولاء إلى نصره مباشرة، لذلك يكتسب المحرم هنا معنى البداية، لا مجرد ذكرى الماضي.

يربط هذا الترتيب شهر المحرم ببداية الظهور العلني، ويعطي يوم عاشوراء موقعاً خاصاً في الإعلان، هذا التقاطع بين الحسين عليه السلام والقائم عليه

52 ترتيب التاسع والعاشر من المحرم مستخلص من جمع الشيخ للروايات في حلقات السلسلة وخارطته الزمنية، ويعرض هنا بوصفه ترتيب الشيخ.

السلام ليس مجرد تشابه في التقويم، في الوعي الشيعي يحمل عاشوراء ذاكرة المظلومية الكبرى، ويأتي المشروع المهدي ليحمل عنوان إقامة الحق والعدل بعد تاريخ طويل من الانحراف.

ومن هنا يكتسب المحرم في الخارطة معنى البداية لا الحزن وحده، السنوات والأشهر التي سبقت كانت تهيئ للمشهد، أما هنا فيبدأ التحول الذي سيعيد تشكيل العالم، إن اجتماع الذاكرة الحسينية والحركة المهدوية في شهر واحد يجعل القارئ يرى الظهور امتداداً لخط أهل البيت لا حدثاً منفصلاً عن تاريخهم.

الفصل الثالث

لماذا مكة؟

مكة بيت الله الحرام وقبلة المسلمين وموضع الكعبة، وبداية الإعلان منها تناسب طبيعة مشروع يتجاوز القوميات والحدود، القائم لا يأتي ليؤسس حزباً محلياً، بل مشروعاً إلهياً عاماً، ومن ثم يبدأ من المكان الذي يمثل في وعي المسلمين مركز التوحيد.

اختيار مكة ينسجم مع طبيعة المشروع الذي لا ينتمي إلى قومية أو دولة، الكعبة قبلة المسلمين، والحرم موضع تتجه إليه القلوب من أقطار مختلفة، ولذلك يبدأ الإعلان من مكان تتجاوز رمزيته الحدود السياسية التي رسمتها الدول.

كما أن مكة كانت حاضرة في العلامات القرينية: العائد، والنفس الزكية، والركن والمقام، فليست المدينة مسرّحاً أضيف في اللحظة الأخيرة، لقد هيأت الروايات القارئ لعودتها مراراً حتى تصبح نقطة الانتقال من الغيبة إلى الحضور، ومن مركز التوحيد تبدأ حركة ستتجه بعد ذلك إلى العراق ثم إلى العالم.

اختيار مكة لبداية الإعلان ينسجم مع عالمية المشروع، فهي ليست عاصمة قومية ولا مركز حزب، بل بيت الله وقبلة المسلمين ومكان يرتبط بالتوحيد والحج واجتماع الناس، ومن هذا الموضع يبدأ الإمام مشروعاً لا يريد أن يبقى أسير حدود العراق أو الشام أو إيران، وإن كانت هذه الأقاليم هي المسرح الأول للعلامات.

كما أن مكة تجمع في الأيام القرية أحداثاً متعددة: النفس الزكية، ثم حضور الإمام، ثم البيعة، ثم تحرك جيش نحوه وانكساره في البداء، لذلك لا تكون المدينة مجرد خلفية جغرافية، بل مركز انتقال من الرفض إلى النصر ومن الغيبة إلى الإعلان.

كما أن مكة تمنح الإعلان بعداً لا تملكه عاصمة سياسية محلية، الناس يعرفون الكعبة قبل أن يعرفوا حدود الدول الحديثة، ويتجه المسلمون إليها من أقاليمهم المختلفة، ولذلك فإن البداية من الحرم تجعل النداء مرتبطاً بمركز التوحيد لا بمركز قومية أو حزب، في مشروع يريد أن يمتد إلى العالم، تكون نقطة البداية ذات دلالة: الإمام لا يطلب من الناس أن يدخلوا في هوية محلية جديدة، بل يعيدهم إلى مركز ديني تعرفه الأمة كلها.

الفصل الرابع

العائد الآخر

يعود هنا خبر العائد الذي مر في باب الإرهاصات، وتُقرأ صورة العائد الآخر على الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، ويصل الخبر بجيش الخسف الذي يتحرك نحوه.⁽⁵³⁾ وهكذا يعود خيط بدأ سنة 1979 بوصفه إرهاباً ليصل إلى مكة زمن الظهور.

هنا يعود الخبر القديم عن العائدين إلى نهايته، العائد الأول في التطبيق المعتمد هنا كان القحطاني سنة 1979، ثم مضت «برهة من دهرهم»، أما العائد الآخر فهو صاحب الأمر الذي يرتبط به جيش الخسف، عودة هذا الخيط بعد أبواب طويلة تعطي الخارطة إحساساً بالاتصال؛ ما ظهر في الإرهاصات يجد تمامه في زمن الظهور.

والفارق بين الواقعتين كبير، العائد الأول كان ضمن دعوى مهدوية انتهت بالقتل، أما العائد الآخر فيأتي بعد سلسلة علامات متكاملة، وبعد الرايات والصيحة والنفس الزكية، ويرتبط بنصرة إلهية تظهر في خسف الجيش المتجه إليه، لذلك لا يكفي تشابه المكان؛ اكتمال السياق هو الذي يحدد موقع الحدث.

53 نعيم بن حماد، كتاب الفتن، ص 197، الباب 41، الحديث 889؛ خبر العائد الآخر وجيش الخسف، تطبيق العائد الآخر على الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه من قراءة الشيخ.

عودة خبر العائد في هذا الموضع تُغلق دائرة بدأت في باب الإرهاصات، العائد الأول الذي طُبّق على حادثة 1979 انتهت حركته بالقتل، أما العائد الآخر فيأتي في سياق مختلف كلياً: بعد ظهور العلامات الكبرى، ومع جيش يتجه نحوه ثم يُخسَف به، لذلك فإن المشترك بينهما هو مكة والعود، أما النتيجة والسياق فمختلفان.

ويشرح هذا الفرق طريقة التعامل مع التطبيقات التاريخية: الحدث السابق يمكن أن يكون إرهاباً أو مثلاً يفتح باب الفهم، لكنه لا يسلب النص معناه الأخير، العائد الآخر يبقى جزءاً من زمن الظهور، ومن خلاله تتصل مكة بالسفياي وخسَف البيداء.

الفصل الخامس

الثلاثمائة والثلاثة عشر

«أصحاب القوائم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً»⁽⁵⁴⁾

يمثل هذا العدد النواة الأولى التي تحيط بالإمام في بداية قيامه، ويأتي في بعض الروايات بعدد أهل بدر، ولا ينصرف الاهتمام إلى الأسماء، بل إلى ما يصنع صاحبًا صالحًا للقائم: المعرفة، والثبات، والطاعة، والقدرة، والاستعداد لخدمة المشروع.

عدد الثلاثمائة والثلاثة عشر يستدعي في الروايات عدد أهل بدر، وتقدمه الروايات بوصفه النواة الأولى التي تجتمع حول القائم، غير أن التركيز عنده لا ينبغي أن يتحول إلى مطاردة أسماء مفترضة، فالسؤال الأهم هو: ما الصفات التي تجعل الإنسان صالحًا ليكون من أهل النصرة؟

الأبواب السابقة أعطت جوابًا متدرجًا: معرفة بالإمام، وطاعة بعد المعرفة، وثبات في الفتنة، وعقل يميز الرايات، وحفظ للنفس، وقدرة على الخدمة، لذلك فإن الحديث عن العدد يعود بنا إلى وظيفة الانتظار، من أراد صحبة القائم لا يكفي أن يتمنى مكانًا في العدد، بل يبنى في نفسه ما يتناسب مع مشروع يحتاج رجالًا قادرين على حمل مسؤولية عالم يتغير.

54 النعاني، الغيبة، ص 329 بحسب طبعة أنوار الهدى؛ عن الإمام الباقر عليه السلام: «أصحاب القوائم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً»، وفي رواية أخرى: «في عدة أهل بدر».

عدد الثلاثمائة والثلاثة عشر لا يُطرح في الكتاب كمسابقة لمعرفة الأسماء، بل بوصفه عنواناً للنواة التي تتجمع حول الإمام، تشبيه العدد بعدد أهل بدر يضيفي على الجماعة معنى البداية المؤمنة القليلة التي تحمل مشروعاً أكبر من حجمها العددي، القيمة في اتصالها بالإمام واستعدادها للتنفيذ والطاعة.

ولهذا ويعود السؤال إلى القارئ: ما الذي يصنع صاحباً للقائم؟ الأبواب السابقة أجابت عملياً: معرفة، بصيرة، ثبات، قدرة، وحفظ للنفس من أن تستهلكها الرايات المشتبهة، التمني وحده لا يصنع صحبة، الصحبة نتيجة بناء طويل يجعل الإنسان صالحاً لأن يوضع في خدمة مشروع الإمام عندما يحين وقته.

وإذا كان العدد يلفت النظر، فإن السؤال يعود إلى نوعية هؤلاء الرجال، فالمرحلة لا تحتاج جمهوراً كبيراً بقدر ما تحتاج نواة تعرف الإمام وتطيعه وتملك القدرة على حمل المسؤولية، ومن هنا يمكن قراءة كل أبواب التربية السابقة بوصفها إعداداً لمعنى الصحبة: حفظ النفس، والعقل، والثبات، وعدم الارتهان للرايات، وبناء القوة، فالعدد وحده لا يصنع أصحاباً، الذي يصنعهم هو اجتماع المعرفة بالاستعداد عندما يحين وقت الخدمة المباشرة.

الفصل السادس

البيعة لصاحب الأمر

مع ظهور الإمام تنتهي مرحلة الوسائط، اليماي كان يدعو إلى صاحبكم، والخراساني تنتهي راياته إلى البيعة، أما الآن فالبيعة لصاحب الأمر نفسه، وهنا يظهر الوجه الثاني لحديث «الطاعة للإمام بعد معرفته»: المعرفة التي بنيت في الغيبة تتحول إلى طاعة في زمن الحضور.

تصل فكرة البيعة هنا إلى معناها النهائي، قبل الظهور كانت بعض الرايات تُقاس بكونها تدعو إلى صاحبكم أو تنتهي إلى البيعة له، أما الآن فلا يوجد وسيط بين المؤمن وصاحب الحق، الإمام حاضر، والبيعة له مباشرة.

وهذه اللحظة تكشف حقيقة كل ولاء سبقها، من كان يرى في القائد أو المؤسسة وسيلةً إلى الإمام يستطيع أن يتجاوز الوسيلة بسهولة، أما من جعل الوسيلة غايةً فقد يجد نفسه ممزقاً بين ما اعتاده وبين صاحب الأمر، لذلك كانت «الطاعة للإمام بعد معرفته» قاعدة تأسيسية منذ الباب الأول، ما بُني نظرياً في الغيبة يختبر عملياً عند البيعة.

البيعة هي اللحظة التي تختبر معنى التمهيد كله، قبلها كانت رايات تدعو وتمهد وتتحرك، أما الآن فقد حضر صاحب الحق الذي ينبغي أن تنتهي إليه تلك الجهود، ومن هنا لا يبقى للراية الصادقة مشروع موازٍ، ما عندها من رجال وقوة وخبرة يتحول إلى نصره مباشرة للإمام.

وهنا يظهر معنى «الطاعة للإمام بعد معرفته» بأوضح صورة، المعرفة التي

كانت في الغيبة عقيدةً واستعداداً تصبح في الحضور التزاماً عملياً، وكل ما تعلمه المؤمن عن عدم الانخداع بالكثرة والشعار والنسب يصبح لازماً، لأن البيعة ليست عاطفة لحظة، بل تسليم القيادة لمن ثبتت حجته في قلب المؤمن قبل أن يراه.

البيعة هنا تكشف حقيقة التمهيد السابق، كل راية ادعت أنها تعمل للإمام تصل الآن إلى امتحان بسيط في ظاهره وحاسم في جوهرة: هل تسلم القيادة لصاحبها أم تحتفظ بالناس لنفسها؟ ولهذا كانت عبارة اليماني «يدعو إلى صاحبكم» ذات معنى عميق منذ البداية، التمهيد الذي لا ينتهي إلى البيعة ليس تمهيداً كاملاً، والمعرفة التي لا تتحول إلى طاعة تبقى معرفة ناقصة، في مكة تجتمع النظرية والتطبيق في لحظة واحدة.

الفصل السابع

بين الركن والمقام

المكان الذي شهد قتل النفس الزكية يصبح مرتبطاً ببداية البيعة، ومن الدم إلى الطاعة تتغير دلالة الموضع: انتهت المرحلة التي يرفض فيها الناس رسول الإمام، وبدأت المرحلة التي يظهر فيها الإمام بنفسه ويجمع أصحابه.

الموضع بين الركن والمقام يجمع حدثين متقابلين في الدلالة: قتل النفس الزكية، ثم حضور الإمام والبيعة، في الأول يرفض الناس رسولاً مرتبطاً بصاحب الأمر، وفي الثاني يظهر صاحب الأمر نفسه وتبدأ جماعة النصر، كأن المكان يشهد انتقالاً سريعاً من أقصى مظاهر الرفض إلى بداية الاستجابة.

ولا يقتصر معنى الموضع على الإشارة الجغرافية؛ فهو جزء من السرد: الدم الذي سُفك قبل خمس عشرة ليلة يضع القارئ أمام توتر الأيام الأخيرة، ثم تأتي البيعة لتفتح مرحلة جديدة، المكان نفسه يحمل أثر الخاتمة والبداية معاً.

الموضع بين الركن والمقام يحمل في الخارطة مفارقة شديدة: فيه يُقتل الرسول القريب من الظهور، ثم يرتبط به حضور الإمام والبيعة، في زمن قصير يتحول المكان من شاهد على رفض مبعوث الحجة إلى شاهد على اجتماع أصحابه حوله، وهذه المفارقة تلخص سرعة التحول في الأيام الأخيرة.

كما تجعل المكان نفسه جزءاً من ذاكرة المرحلة، القارئ لا يتابع أسماء مدن متناثرة، بل يرى كيف يعود الموضع الواحد في أكثر من حدث، فيربط بين الرسالة والقتل والظهور والبيعة، بهذا الربط تصبح الجغرافيا جزءاً من السرد لا مجرد حاشية عليه.

الفصل الثامن

الظهور لا ينهي الاختبار

«لا يخرج القائم حتى يخرج اثنا عشر من بني هاشم كلهم يدعو إلى نفسه»⁽⁵⁵⁾

حتى بعد ظهور الإمام يبقى امتحان الدعوات قائمًا، النسب وحده لا يكفي، والاسم الديني لا يكفي، المعيار هو الدعوة إلى صاحب الأمر والتسليم له، فالظهور يكشف حقيقة الرايات: من يسلم له أمره ثبت معنى تمهيده، ومن يستبقي الناس عند نفسه يكشف أن وجهته كانت مختلفة.

من السهل أن يتخيل الإنسان أن ظهور المعصوم ينهي كل التباس فورًا، لكن الروايات الواردة هنا ترسم صورة أكثر امتحانًا، هناك من بني هاشم من يدعو إلى نفسه، وهناك جماعات ستمسك بمشاريعها، وسيظهر لاحقًا من يخاطب القائم نفسه بالرفض، أي إن وضوح الحجة لا يجبر القلوب على الطاعة.

وهذا يفسر لماذا كان بناء الإنسان قبل الظهور أهم من مجرد معرفة العلامات، من اعتاد أن يجعل انتهاءه فوق الإمام لن تغيره لحظة واحدة بسهولة، أما من ربي نفسه على أن كل راية بشرية تنتهي عند صاحب الأمر

55 الطوسي، الغيبة؛ عن أبي خديجة، عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا يخرج القائم حتى يخرج اثنا عشر من بني هاشم كلهم يدعو إلى نفسه».

فسيتحول من الانتظار إلى الطاعة من غير صراع داخلي طويل، الظهور يكشف ما صنعتة سنوات الغيبة في النفوس.

من أخطر الأوهام أن يُتصور أن ظهور الإمام يجعل كل الخلافات تزول تلقائياً، الروايات المستشهد بها هنا عن خروج رجال من بني هاشم يدعو كل منهم إلى نفسه، ثم ما سيأتي في العراق من البترية ومبايعة السفيناني، تقول إن الامتحان يستمر، الفرق أن الحجة تصبح أوضح، ولذلك يصبح الرفض بعد البيان أشد دلالة.

وهنا ينكشف معنى الراية الصادقة بأثر رجعي، من كان يمهد للإمام يذوب مشروعه في مشروعه، ومن كان يستعمل اسمه ليصنع مركزاً مستقلاً يجد نفسه أمام لحظة الاختيار: يسلم أو يتمسك بما بناه، لذلك فالظهور لا يختبر الجاهلين وحدهم، بل يختبر القادة والمتدينين وأصحاب المشاريع كذلك.

الفصل التاسع

جيش السفيناني وخسف البيداء

عندما يصل خبر قيام الإمام إلى القوة السفينانية يتحرك جيش نحو الحجاز، لكنه لا يصل إلى غايته، إذ يقع به الخسف في البيداء بين مكة والمدينة، وبذلك تتحول العلامة من خبر كان المؤمن يعرفه قبل الظهور إلى انكسار عسكري مباشر للقوة المتجهة نحو صاحب الأمر.

يصل المسار السفيناني إلى ذروته في الحجاز، جيش يتحرك نحو مكة لمواجهة الإمام، لكنه يُخسف به في البيداء بين مكة والمدينة، وهكذا لا تنتهي علامة السفيناني عند حدود الشام أو العراق، بل تدخل مباشرة في لحظة حماية الحركة المهدوية الناشئة.

الخسف واحد من العلامات الخمس التي سبق جمعها، لكنه هنا يصبح حدثاً عسكرياً ذا أثر مباشر: قوة كبيرة كانت تتجه إلى صاحب الأمر تنكسر بطريقة خارجة عن الموازين المعتادة، ومن ثم يتغير ميزان المشهد بعد مكة، وتنتهي الحركة للانتقال نحو العراق من دون أن يكون التهديد السفيناني قد انتهى تماماً في بقية الجبهات.

خسف البيداء هو الجسر الذي يصل باب مكة بباب السفيناني، الجيش الذي يتحرك نحو الحجاز لا يواجهه الإمام في معركة تقليدية عند مكة، تتدخل علامة الخسف فتكسر القوة في الطريق بين مكة والمدينة، وبهذا تتحول إحدى العلامات الخمس إلى حدث يحمي

بداية المشروع المهدي ويعلن أن حركة السفيناني وصلت إلى حدها أمام النصر الإلهية.

كما أن الخسف يعيد ترتيب ميزان القوة في وعي الناس، قبل ذلك كان السفيناني قوة تمتد من الشام إلى العراق والحجاز، أما هنا فيظهر أن القوة العسكرية مهما اتسعت ليست مطلقة، وفي لحظة الظهور يدخل عامل جديد في المشهد: صاحب الأمر الذي تقتزن حركته بتأييد لا تملكه القوى المتصارعة قبله.

وخسف البيداء يعيد ربط مكة بالشام مرة أخرى، فالسفيناني الذي بدأ خروجه في بيئة الشام لم يبق حدثاً محلياً، بل امتدت حركته إلى العراق ثم إلى الحجاز، وعندما يتجه جيشه نحو الإمام تكون العلامة قد وصلت إلى مواجهة مباشرة مع صاحب الأمر، هنا يظهر معنى الترابط الإقليمي الذي بنته الأبواب السابقة: خط الشام لا ينتهي في دمشق، وخط مكة لا يبدأ من فراغ، كلاهما يلتقيان في هذه اللحظة التي ينكسر فيها الجيش قبل بلوغ غايته.

الفصل العاشر

مكة بداية وليست نهاية

الظهور في مكة ليس خاتمة مشروع القائم، بل بدايته العلنية، بعد البيعة والخسف تتحرك الخارطة مرة أخرى نحو العراق؛ إلى القادسية والنجف والكوفة، حيث يبدأ امتحان جديد لا يتعلق بمعرفة الإمام من وراء الغيبة، بل بطاعته بعدما ظهر.

البيعة في مكة لا تعني أن دولة العدل اكتملت، هي إعلان البداية، ومن بعدها يبدأ مسار طويل من المواجهة والفرز وإعادة بناء المجتمع، لذلك تتحرك الخارطة من الحجاز إلى العراق، حيث توجد عقد قديمة لم تُحل بعد: قوى وولاءات ورايات وبيئات دينية ستواجه الإمام حضورًا لا غيبة.

هذه الحركة تحفظ للكتاب توازنه، فالظهور ليس مشهدًا ختامياً رومانسياً، بل لحظة بدء المسؤولية الكبرى، ومن أراد فهم دولة القائم يجب أن يمر أولاً بامتحانات العراق بعد الظهور، لأن المجتمع الذي انتظر الإمام سيُظهر في تلك المرحلة حقيقة نوع الانتظار الذي عاشه.

وهكذا يعود الكتاب إلى أرض عرفها القارئ في الأبواب الأولى، لكن بظرف جديد، قبل الظهور كانت الكوفة مقصدًا للسفاني والخراساني، أما بعد الظهور فهي مقصد الإمام نفسه، هذا التحول يهيئنا للباب التالي، حيث يصبح السؤال أقل تعلقًا بالتعرف على الإمام وأكثر تعلقًا بمن سيُطيعه بعد أن عرفه.

ومن الخطأ أن يتحول وصول القارئ إلى مكة إلى شعور بانتهاء الخارطة، البيعة هي بداية السلطة العلنية، لكنها تفتح أمام الإمام ساحات لم تُحسم بعد، وفي مقدمتها العراق، هناك بقايا رايات وولاءات ومشاريع ستواجه الإمام بعد ظهوره، ولذلك يعود السرد إلى الكوفة والنجف، بهذا يحافظ الكتاب على المعنى الذي بدأ به: الظهور لا يلغي الامتحان، بل ينقل الإنسان من امتحان معرفة الإمام في الغيبة إلى امتحان الطاعة له في الحضور.

الباب التاسع

من مكة إلى العراق والكوفة

خسف البيداء، القادسية، النجف، والبصرة

الفصل الأول

ما بعد الإعلان ليس نهاية الفتنة

بعد ظهور الإمام يتغير الامتحان ولا ينتهي، قبل ذلك كان السؤال: من هو صاحب الحق؟ وبعد ظهوره يصبح السؤال: من يطيعه؟ ولهذا لا يكون الانتقال من مكة إلى العراق انتقالاً جغرافياً فقط، بل انتقالاً في طبيعة المواجهة.

قبل الظهور كان الالتباس يتعلق بتشخيص الإمام والرايات، أما بعد الإعلان فيصبح الامتحان في الطاعة، هذا انتقال بالغ الأهمية، فالإنسان قد يقتنع نظرياً بصحة خبر الظهور ثم يجد أن مصالحه وولاءاته القديمة تمنعه من التسليم الكامل.

لذلك لا تختفي الفتنة، بل تتغير صورتها، لم يعد السؤال هل جاء القائم، وإنما ماذا نصنع حين يأتي بما يخالف ما اعتدناه؟ هل نقدم كلامه على المؤسسات والموروثات والارتباطات التي شكلتنا؟ من هنا تبدأ مواجهة أشد دقة من مواجهة الجهل بالعلامات.

حين يصبح الإمام ظاهراً لا يعني ذلك أن آثار قرون الغيبة تختفي في لحظة، المجتمعات تحمل معها ولاءاتها ومؤسساتها وتصوراتها ومصالحها، وبعض هذه البنى سيقاوم الانتقال إلى قيادة الإمام، لذلك يتحول الامتحان من «هل أعرف الحجة؟» إلى «هل أستطيع أن أترك ما ألفته عندما يأمر الحجة؟».

وهذا هو السبب في أن الباب التاسع أكثر حساسية من الأبواب السابقة، الفتنة هنا لا تقوم على غياب صاحب الحق، بل على قدرة الإنسان على التسليم

له وهو حاضر، قد تكون المعرفة بالاسم موجودة، لكن الطاعة تحتاج إلى تحرر من مرجعيات ومصالح ومشاريع سابقة.

هذه الفكرة ضرورية كي لا نتخيل أن رؤية الإمام تزيل تلقائيًا كل العوائق التي تراكمت في الناس، قرون من الانتماءات والمصالح والتصورات لا تختفي في لحظة، ولذلك تستمر المواجهة بعد الإعلان ولكن بصيغة أوضح، قبل مكة كان الإنسان يستطيع أن يقول إنه لم يعرف الراية الصحيحة، أما بعد ظهور صاحب الأمر فإن السؤال يصبح أكثر مباشرة: هل يترك ما ألفه ويسلم للإمام، أم يحاول أن يجعل الإمام تابعًا لما بناه هو؟

الفصل الثاني

العراق يعود إلى مقدمة المشهد

كانت الكوفة قبل الظهور موضع هدم الحائط والرايات المشتبهة والشيصباني وصاحب البرقع وسباق السفيناني والخراساني، وبعد الظهور تعود المنطقة نفسها، لكن هذه المرة لتواجه الإمام مباشرة ثم تتحول لاحقاً إلى مركز من مراكز دولته.

عودة العراق بعد مكة ليست طارئة، الأبواب السابقة جعلت الكوفة مركزاً تتجمع حوله العلامات قبل الظهور، ولذلك من الطبيعي أن تعود المنطقة نفسها حين يبدأ الإمام بتثبيت مشروعه، ما كان قبل الظهور تمهيداً جغرافياً وسياسياً يصبح بعده ساحة مواجهة مباشرة.

هدم الحائط، والقتل بين الكوفة والحيرة، والرايات المشتبهة، والشيصباني، وصاحب البرقع، وسباق السفيناني والخراساني كلها صنعت بيئة معقدة، حين يدخل الإمام هذه البيئة لا يبدأ من أرض خالية، بل من مجتمع يحمل آثار صراعاته ومرجعياته واصطفافاته، ولهذا يحتاج الانتقال إلى الكوفة إلى فرز جديد.

العراق الذي يعود إليه الإمام ليس أرضاً بلا ذاكرة، الروايات التي مر بها الكتاب صنعت حول الكوفة شبكة من الأحداث: اختلاف السلطة، هدم حائط المسجد، القتل بين الكوفة والحيرة، الرايات المشتبهة، الشيصباني، وصاحب البرقع، ثم سباق السفيناني والخراساني، كل هذه الخيوط تفسر لماذا

يعود العراق سريعاً إلى قلب الأحداث بعد مكة.

وفي هذا الرجوع تتغير وظيفة المكان، قبل الظهور كانت الكوفة ميداناً تتنافس عليه القوى، وبعد الظهور تبدأ عملية تحويلها إلى مركز للمشروع، لكن بين الحالتين توجد مرحلة فرز ومواجهة، لأن المجتمع الذي عاش طويلاً وسط الرايات لا ينتقل آلياً إلى راية واحدة بمجرد الإعلان.

وعودة العراق بعد مكة ليست عودة إلى الموضوع نفسه كما كان قبل الظهور، في المرة الأولى كان العراق ساحة اشتباه تتقاطع فيها رايات وتحولات، أما الآن فيدخله الإمام نفسه، لذلك تتغير وظيفة المكان: الكوفة التي كانت مقصد السفيناني والخراساني ستصبح ميداناً لفرز الولاءات، والنجف التي كانت رمزاً للبيئة الشيعية ستشهد امتحاناً في معنى التسليم، هذا التحول يجعل الباب التاسع نتيجة طبيعية لكل ما قيل عن العراق في الباب الثالث.

الفصل الثالث

القادسية وبداية الفرز

وترد رواية عن الإمام السجاد عليه السلام في مسير القائم إلى القادسية واجتماع الناس في الكوفة.⁽⁵⁶⁾ وتكشف الرواية أن ظهور الإمام لا يجعل المجتمع كله مطيعاً آلياً، فما زالت هناك ولاءات ومشاريع سابقة تحتاج إلى فرز.

القادسية تظهر في الرواية الواردة هنا كمحطة في مسير القائم نحو الكوفة، ودلالاتها في بناء الباب أنها بوابة انتقال من إعلان مكة إلى الاحتكاك بالمجتمع العراقي، عند هذه المرحلة تتجمع الناس وتظهر المواقف، فلا يكون حضور الإمام كافياً لإنتاج طاعة آلية.

الفرز هنا يكشف ما كان كامناً، جماعات بنت ولاءاتها في زمن الغيبة ستضطر إلى اختيار موقعها، وبعضها سيستمر في طريق آخر رغم وضوح الإمام، ولذلك تصبح القادسية بداية امتحان اجتماعي وسياسي، لا مجرد اسم على طريق عسكري.

القادسية في الرواية المعروضة هنا تمثل بوابة الدخول إلى المشهد العراقي بعد الظهور، الوصول إليها يعني أن الحركة خرجت من نطاق الحجاز

56 المجلسي، بحار الأنوار، ج52؛ في رواية أبي خالد الكابلي عن الإمام السجاد عليه السلام في مسير القائم إلى القادسية واجتماع الناس بالكوفة.

ودخلت أرضاً ستكشف فيها الولاءات القديمة، ومن هناك تبدأ صورة اجتماع الناس في الكوفة وما يتبعها من مواقف متعارضة.

أهمية هذه المرحلة أنها تكسر التصور الرومانسي الذي يجعل الجميع في انتظار الإمام بالطريقة نفسها، ظهور الحجة يكشف أن الناس لم يبنوا معرفتهم على ميزان واحد، بعضهم يسلم، وبعضهم يظل مرتبباً بمرجعية أو راية أو تصور سابق، لذلك يبدأ الفرز قبل أن تبدأ الدولة في صورتها المستقرة.

والقادسية بوابة إلى المشهد العراقي لا خاتمة له، وصول القائم إلى هذه الجهة يعني أن مشروع مكة بدأ يتحرك نحو مركز كان مهياً للصراع منذ زمن الإرهاصات، ومع تجمع الناس تتكشف الولاءات التي بقيت مستترة، ويظهر أن المعرفة الخبرية بظهور الإمام لا تساوي بالضرورة الطاعة، لذلك يبدأ الفرز قبل المواجهة الكبرى: كل إنسان وكل جماعة يضطران إلى تحديد موقعهما من الإمام الذي صار حاضراً أمامهما.

الفصل الرابع

مبايعة السفينائي بعد الظهور

وتعرض الروايات صورة جماعة في الكوفة تجتمع على السفينائي رغم ظهور القائم، وهنا تصبح الأزمة أزمة بصيرة: قد يعرف الإنسان الخبر، لكنه يكون أسيرًا المرجعية أو مصلحة أو خطاب سابق أقوى في نفسه من التسليم للإمام، وهذه الصورة تفسر لماذا كان بناء معرفة الإمام قبل الظهور ضرورة.

من أقسى الصور المعروضة هنا أن جماعة في الكوفة قد تجتمع على السفينائي بعد ظهور القائم، المفارقة تكشف أن المشكلة ليست نقص معلومة فقط، يمكن للإنسان أن يعيش الحدث ويعرف وجود الإمام ثم تحكمه بيعة أو مصلحة أو مرجعية سابقة إلى حد يختار معه الضد.

هذه الصورة تعيد تفسير كل التحذيرات السابقة من الرايات، إذا ربط الإنسان دينه بشخص أو تنظيم من دون أن يجعل الإمام فوقه، قد يصل إلى لحظة يرفض فيها الإمام حفاظًا على ما بنى، لذلك كانت التربية على البيعة الواحدة لصاحب الأمر ضرورة عملية قبل الظهور، لا شعارًا وجدانيًا.

مبايعة جماعة للسفينائي بعد ظهور القائم من أكثر الصور المستخدمة هنا لإظهار قوة الولاء السابق على الإنسان، كيف يختار أناس السفينائي والحجة أمامهم؟ الجواب في بنية الكتاب أن المشكلة لم تكن يومًا نقص المعلومات وحده، قد يعرف المرء اسم الإمام ونسبه، لكنه لا يكون قد درّب نفسه على جعل الإمام فوق قياداته ومصالحه.

ولهذا يعود هذا الفصل إلى الباب الأول من طريق مختلف، «معرفة الإمام» التي لا تنتج طاعة قد تبقى معرفة سطحية، الظهور يكشف عمق المعرفة: هل كانت الولاية أصلاً تحكم سائر الانتماءات، أم عنواناً يضاف إليها ما دامت لا تتعارض معها؟ عند التعارض يظهر الجواب الحقيقي.

الفصل الخامس

البترية

من أشد مشاهد هذا الباب رواية البترية الواردة في دلائل الإمامة: جماعة من القراء والفقهاء تخرج في وجه القائم وتقول له: «يا ابن فاطمة، ارجع، لا حاجة لنا فيك».⁽⁵⁷⁾

المفارقة أنهم يعرفون نسبه وينادونه بابن فاطمة، لكن المعرفة بالنسب لا تتحول إلى طاعة، ومن هنا ويتضح هنا خطر التدين الذي يصبح حجاباً عن الإمام إذا جعل الإنسان موروثه أو مؤسسته أو فهمه الخاص معياراً يحاكم به الإمام بدل أن يتلقى منه.

رواية البترية تصدم القارئ لأنها تضع أمام القائم جماعة من القراء والفقهاء، لا جماعة تجهل نسبه، هم يخاطبونه: «يا ابن فاطمة»، أي إنهم يعرفون من هو، ثم يطلبون منه أن يرجع، هنا تبلغ أزمة المعرفة الناقصة ذروتها: معرفة الاسم لا تنتج بالضرورة معرفة المقام.

وتمثل البترية صورة لتدين يصنع لنفسه قالباً ثم يريد من الإمام أن يدخل فيه، فإذا جاء صاحب الأمر بدين محمد وآل محمد على حقيقته واصطدم بموروث طويل، قد يتحول الموروث في يد أصحابه إلى ميزان يحاكمون به

57 محمد بن جرير الطبري الإمامي، دلائل الإمامة، مؤسسة البعثة، قم، ص 455 تقريباً؛ عن الإمام الباقر عليه السلام في البترية وخروجهم من الكوفة واعتراضهم على القائم.

الإمام، لذلك يحمل هذا المشهد تحذيرًا من أن يصبح ما نعرفه عن الدين حجابًا عن صاحبه.

فالمشكلة ليست في التدين من حيث هو تدين، وإنما في أن يتحول ما صنعه البشر في زمن الغيبة إلى ميزان يحاكمون به المعصوم عند حضوره، وتمثل البترية مثالًا واضحًا لخطر الانفصال بين عنوان التشيع وحقيقة التسليم للإمام، ولهذا كان يكرر أن معرفة الإمام ليست اسمًا ونسبًا، بل معرفة مقام وولاية وطاعة.

الفصل السادس

ظهر النجف

تستمر الرواية إلى المواجهة على ظهر النجف.⁽⁵⁸⁾، والنجف وهي مدينة أمير المؤمنين عليه السلام ومركز من أعظم مراكز التشيع، تصبح مسرحاً لامتحان شديد: هل ينتهي التدين إلى ولاية القائم، أم يبقى عند صورة بشرية ورثها الإنسان؟

وقوع المواجهة على ظهر النجف يزيد المشهد دلالة، فالنجف مدينة أمير المؤمنين عليه السلام ومركز من أعظم مراكز التشيع، ومع ذلك يمكن أن تصبح ساحتها موضع امتحان للطاعة، المكان المقدس لا يعصم الإنسان من خطأ الموقف إذا اختلف ميزانه.

وهنا يكتمل معنى أن الولاية ليست هوية جغرافية أو اجتماعية، قد يعيش الإنسان في أقرب الأمكنة إلى رموز أهل البيت، لكنه يحتاج إلى أن يسلم للإمام الحي حين يظهر، وبهذا تتحول النجف من عنوان للانتساب إلى ساحة اختبار للمعنى الانتساب نفسه.

وهذا ينسجم مع الفكرة التي تكررت في مواضع عدة: المؤسسة والاسم والماضي لا تعطي عصمة لأحد، عند حضور الإمام يصبح الميزان هو الإمام، ومن هنا فإن النجف لا تُنتقص في الرواية، بل تُعاد

58 دلائل الإمامة، الموضع السابق؛ تنمة رواية البترية في وقوع المواجهة على ظهر النجف.

إلى معناها الأصيل حين ينتهي الولاء فيها إلى ابن أمير المؤمنين القائم بأمر الله.

والنجف تحمل في الوجدان الشيعي معنى خاصًا بسبب اتصالها بأمير المؤمنين عليه السلام وبالمدرسة الدينية، ولذلك تكون المواجهة على ظهرها أكثر من مجرد اختيار لميدان جغرافي، إنها تضع السؤال في قلب البيئة التي يفترض أنها الأقرب إلى الولاية: هل تكفي الشعارات والانتساب إذا وقع التعارض مع أمر القائم؟ الرواية تجعل المكان نفسه شاهدًا على أن القرب التاريخي أو الديني لا يغني عن الطاعة المباشرة للإمام.

الفصل السابع

من اثنتي عشرة راية إلى راية واحدة ظاهرة

قبل الظهور كان الاشتباه بين اثنتي عشرة راية، أما بعده فقد ظهر الإمام نفسه، لم تعد المشكلة: أي الرايات هي الصحيحة؟ بل: هل تترك رايتك من أجل الإمام؟ وهذا يبين أن الطاعة قد تكون أشد امتحاناً من المعرفة، لأن الإنسان قد يكون بنى مكانته وعلاقاته داخل مشروع لا يريد التخلي عنه.

قبل الظهور كان المؤمن يواجه اثنتي عشرة راية مشتبهة، ولذلك كان يطلب علامة تخرجه من التشابه، بعد الظهور انقلبت الصورة: الإمام نفسه حاضر، فلا تبقى مشكلة في قلة العلامات، بل في قدرة الإنسان على ترك رايته القديمة.

وهذا قد يكون أصعب، لأن الراية ليست فكرة مجردة، بل علاقات ومكانة وتاريخ ومصالح وذكريات، أن تقول «أنا مع الإمام» في الغيبة أسهل من أن تتخلى عن مشروع أمضيت فيه عمرك حين يأمرك الإمام بغير ما اعتدت، لذلك تكون الطاعة بعد المعرفة ذروة الامتحان.

هذا الانتقال يجعل الطاعة أعمق من مجرد الاختيار السياسي، قد يضطر الإنسان إلى ترك موقع بناه طوال عمره، أو جماعة أحبها، أو قائداً وثق به، لأن صاحب الأمر حضر، وهنا تبلغ التربية المهدوية غايتها: أن يكون الإمام أعلى من كل مشروع تشكل في غيبته.

هنا تنغلق دائرة بدأت قبل الظهور، يوم كانت الرايات اثنتي عشرة كان

المؤمن يحتاج إلى التثبت لأن العناوين متشابهة، أما الآن فقد ظهر صاحب الحق بنفسه، ولذلك يصبح الاستمرار في راية بشرية بعد ذلك أشد دلالة من الخطأ قبل الظهور، فالعذر الذي كان يصنعه الاشتباه لم يعد موجوداً، هذه المقارنة تعطي معنى لكل ما سبق عن معرفة الإمام: الغاية من المعرفة أن يستطيع الإنسان، حين يظهر الإمام، أن يترك كل عنوان سابق ويسلم له بلا مزاحمة.

الفصل الثامن

الكوفة مركز المشروع

بعد حسم المواجهات تنتقل الكوفة من ساحة اضطراب إلى مركز متقدم في مشروع القائم، المدينة التي كانت نقطة التقاء الرايات تصبح جزءاً من بناء الدولة، وهنا ينتقل الكتاب من «حركة الظهور» إلى «دولة القائم»؛ من سؤال من ينتصر إلى سؤال كيف يُبنى المجتمع تحت قيادة الإمام.

بعد حسم مراحل المواجهة لا تبقى الكوفة عنوان فتنة فقط، تتحول إلى مركز متقدم في دولة القائم، وكأن المدينة التي اجتمعت عندها الرايات قبل الظهور تصبح بعده موضع اجتماع المشروع تحت راية واحدة، هذا التحول يلخص مسار العراق كله.

ومن هنا يفتح الكتاب باب الدولة، لقد انتهينا من سؤال كيف تشخص العلامات وكيف يصل الإمام إلى العراق، وننتقل إلى سؤال أوسع: ماذا يصنع الإمام بمجتمع ورث قروناً من الظلم ونقص المعرفة؟ الكوفة تصبح نقطة انطلاق للجواب، لا نهاية الرحلة.

بعد مرحلة الفرز تتحول الكوفة من مقصد للقوى المتنافسة إلى مركز يرتبط بدولة القائم، هذه النقلة من الفتنة إلى المركزية هي أحد أجمل خطوط الخارطة: المدينة التي تكدست حولها الرايات والقتل والاختراق تصبح في النهاية جزءاً من بناء النظام الذي ينهي زمن الرايات المشتبهة.

ولهذا لا ينتهي الكتاب عند الانتصار العسكري، وصول الإمام إلى الكوفة يفتح سؤالاً أكبر: ماذا يفعل المجتمع بعد أن استقرت القيادة؟ هنا نتقل من أخبار الظهور إلى معنى الدولة، ومن حركة الجيوش إلى العلم والعدل والعمران وبناء الإنسان.

تحول الكوفة من ساحة اضطراب إلى مركز للمشروع يوضح أن الأماكن نفسها يمكن أن تتغير وظيفتها حين تتغير القيادة، ما كان قبل الظهور ميداناً للرايات يصبح بعد تثبيت أمر القائم قاعدة لبناء الدولة، ولذلك لا يكون مستقبل الكوفة استمراراً لواقعها السابق، بل انقلاباً في وظيفتها: من مدينة يلتقي فيها الصراع إلى مدينة تنطلق منها إدارة مشروع العدل والمعرفة، بهذا التحول يمهد الكتاب للباب العاشر، حيث لا يعود السؤال عن يملك الأرض بل كيف تُبنى الحياة فيها.

الباب العاشر

دولة القائم ومشروع العدل

من تثبيت الحكم إلى انقلاب المعرفة
وبناء الإنسان

الفصل الأول

الظهور بداية المشروع

الظهور ليس نهاية القصة، بل بدايتها الفعلية، فكل ما سبق من علامات وإرهاصات ورايات كان يقود إلى لحظة يصبح فيها صاحب الأمر حاضرًا في قيادة المجتمع، ومن هنا ينتقل السؤال من «متى يظهر؟» إلى «ماذا يفعل حين يظهر؟».

كثير من الحديث الشعبي عن الإمام ينتهي عند لحظة الظهور، بينما يصبح الظهور بداية العمل الأعظم، العلامات كلها كانت تهيئة لوصول القيادة المعصومة إلى المجتمع، أما بعد ذلك فتبدأ مهمة تغيير عالم تراكمت فيه أنظمة ومفاهيم ومصالح على مدى قرون.

ولهذا فإن الانتصار العسكري، على أهميته، لا يختصر المشروع، المطلوب بناء إنسان ومؤسسات ومعرفة واقتصاد وقضاء وعلاقات اجتماعية على ميزان مختلف، إن دولة القائم ليست مكافأة تأتي بعد انتظار طويل فحسب، بل مسؤولية حضارية تتطلب من الأنصار أن يكونوا قادرين على المشاركة في بناء جديد.

من السهل أن يتحول انتظار الظهور إلى تصور أن اليوم الموعود هو نهاية التعب، بينما يحمل الظهور معنى مختلفًا: فهو بداية العمل الأكبر، الإمام يخرج إلى عالم يحمل أنظمة ومفاهيم ومصالح وحروبًا وموروثات متراكمة، وكل ذلك يحتاج إلى إعادة ترتيب على أساس الحق.

لذلك فإن قيمة أبواب العلامات أنها أوصلت إلى القيادة، لا أنها أنجزت مشروع الدولة، بعد أن عرفنا من هو صاحب الأمر ومن نصره ومن عاداه، تبدأ المهمة التي من أجلها وقع الظهور: إقامة العدل، نشر المعرفة، تصحيح الدين، وبناء مجتمع يستطيع أن يعيش تحت إمامة المعصوم.

ومن هذه الزاوية تتغير قيمة كل ما سبق، كانت العلامات مهمة لأنها تقود إلى لحظة تسلم القيادة للإمام، لكن القيادة ليست غاية ساكنة، إنها بداية إصلاح شامل، فالدولة التي يقيمها القائم تحتاج إلى قضاء واقتصاد وعلم وإدارة وتربية وعمران، وتحتاج قبل ذلك إلى إنسان قادر على العيش تحت ميزان مختلف عن الموازين التي اعتادها، لذلك فإن الحديث عن دولة القائم ليس ملحقاً بعد قصة الظهور، بل هو بيان للغاية التي من أجلها كانت كل تلك الحركة.

الفصل الثاني

الإمام لا يصلح نظامًا قديمًا فقط

القائم عليه السلام لا يأتي ليستلم مؤسسة قائمة ثم يديرها بصورة أفضل، المشروع أعمق: قرون من التراكم في الفهم والدين والسياسة والعادات والمصالح تحتاج إلى إعادة إلى الأصل، ولذلك قد يبدو ما يأتي به جديدًا على الناس مع أنه عودة إلى دين محمد وآل محمد صلوات الله عليهم.

في هذا التصور لا يأتي الإمام ليضع اسمه على نظام قائم ثم يحسن إدارته، المشكلة أعمق من فساد أشخاص، هناك تراكم في الفهم الديني والسياسة والقانون والاقتصاد والعادات، وقد صار بعضه مألوفًا إلى درجة يظنه الناس من أصل الدين أو من طبائع الحياة التي لا تتغير.

ولهذا قد يبدو ما يأتي به القائم جديدًا، مع أنه في جوهره إعادة إلى دين محمد وآل محمد، الغربة تنشأ من طول المسافة بين الأصل وما استقر في وعي الناس، ومن هنا نفهم صعوبة المرحلة: التغيير لا يمس الحاكم فقط، بل يمس التصورات التي يحملها المجتمع عن الحق والعدل والعلم والسلطة.

المشروع المهدوي ليس تغيير حاكم وترك بقية البنية كما هي، لو كان الأمر كذلك لكان الظهور إصلاحًا سياسيًا محدودًا، أما دولة القائم فتعيد النظر في الطريقة التي تشكل بها فهم الدين، وفي مؤسسات الحكم والقضاء والاقتصاد والعلم والعلاقات الاجتماعية.

ومن هنا يمكن أن يبدو ما يأتي به الإمام جديدًا على الناس، لا لأنه دين

جديد، بل لأن الناس ابتعدوا عن الأصل حتى صار الأصل غريباً عليهم، هذه الفكرة تفسر شدة بعض المواجهات بعد الظهور، فالإنسان لا يتنازل بسهولة عن نظام اعتاد أن يراه ديناً أو مصلحة أو حقيقة ثابتة.

فلو كان المشروع مجرد تحسين إدارة النظام الموجود لما احتاج العالم إلى إمام معصوم يقود تحولاً بهذا الحجم، الفكرة هنا أن الخلل متراكم في المعرفة والقيم والمؤسسات معاً، وأن العودة إلى أصل الدين ستبدو لكثير من الناس جديدة لأنهم ألفوا صوراً أخرى عبر القرون، لذلك لا يكون دور القائم ترقيع القديم، بل إعادة ترتيب الإنسان والمجتمع على ميزان محمد وآل محمد عليهم السلام، وهو ما يفسر شدة بعض المواجهات الفكرية والدينية حتى بعد ظهوره.

الفصل الثالث

العدل بنية الدولة

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾⁽⁵⁹⁾

العدل في دولة القائم لا يختصر في توزيع المال أو معاقبة الظالم، بل يدخل في الحكم والقضاء والاقتصاد والعلم والعلاقات الاجتماعية وفهم الدين، فالظلم قد يكون في حجب الحقيقة كما يكون في أخذ المال، وقد يكون في مؤسسة تخدم جماعة على حساب الناس كما يكون في اعتداء فرد على فرد.

العدل في المشروع المهدوي ليس قراراً قضائياً منفرداً، بل بنية تشمل جميع العلاقات، الدولة العادلة لا تمنع السرقة فقط، تمنع أن تُبنى المؤسسات على امتياز ظالم، وأن تُحجب المعرفة التي يحتاجها الناس، وأن يصبح الاقتصاد أداة استغلال، وأن يحكم القوي لأنه أقوى.

ولهذا تتصل بين العدل والمعرفة والقوة، لا يمكن لقاضي أن يعدل إذا كانت معلوماته فاسدة، ولا لدولة أن تحمي العدالة إذا كانت عاجزة، ولا لمجتمع أن يستقيم إذا بقيت علاقاته قائمة على التمييز والمصلحة الخاصة، العدل شبكة، ولذلك يحتاج المشروع إلى إعادة بناء الشبكة كلها.

59 القرآن الكريم، سورة النحل، الآية 90.

العدل هنا ليس شعارًا يرفع فوق مؤسسات قديمة، بل قاعدة يعاد بها بناء المؤسسات نفسها، الحكم عادل حين لا يتحول إلى امتياز، والقضاء عادل حين يصل إلى الحقيقة، والاقتصاد عادل حين لا يجعل فئة تعيش على استنزاف أخرى، والمعرفة عادلة حين لا تُحجب عن الناس بما يخدم سلطة أو مصلحة.

ولهذا يرتبط العدل بكل الأبواب التالية، لا يمكن أن تقوم دولة عادلة بعلم ناقص، ولا أن تحمي حقها بقوة عاجزة، ولا أن تبني إنسانًا جديدًا بموروث لا يُسمح له أن يُراجع أمام الإمام، العدل هو الخيط الذي يجمع المعرفة والقوة والاقتصاد والتربية في مشروع واحد.

ومن هنا لا يكون العدل شعارًا يرفع بعد الانتصار، بل قاعدة يدخل تحتها كل قرار، فالقضاء العادل يحتاج معرفة صحيحة، والاقتصاد العادل يحتاج نظامًا يمنع الاستغلال، والإدارة العادلة تحتاج أن تتقدم مصلحة الحق على مصلحة الجماعة، ولذلك يرتبط العدل ببقية عناصر الدولة ولا يفصله عنها، وإذا كانت الأنظمة السابقة تستطيع أن تملك أدوات قوة من دون عدل، فإن دولة القائم تعيد تعريف القوة نفسها بحيث تصبح أداة لحماية الحق لا لحماية الامتياز.

الفصل الرابع

المعرفة أساس العدل

لا يمكن بناء مجتمع عادل على معرفة ناقصة ومشوهة، القرار والقضاء والاقتصاد كلها تنبني على المعرفة، ولهذا تأتي الثورة المعرفية في دولة القائم جنباً إلى جنب مع مشروع العدل، ونصل هنا إلى رواية السبعة والعشرين حرفاً.

«العلم سبعة وعشرون حرفاً... فإذا قام قائمنا أخرج الخمسة والعشرين حرفاً فبثها في الناس، وضم إليها الحرفين، حتى يبثها سبعة وعشرين حرفاً»⁽⁶⁰⁾

وتمثل هذه الرواية إعلاناً عن قفزة هائلة في المعرفة البشرية، ما وصل إليه البشر قبل القائم، مع ضخامته، لا يمثل نهاية العلم، وزمن الإمام يفتح للناس أبواباً جديدة في الفهم والمعرفة، فتدخل الحضارة مرحلة لا تشبه ما قبلها.

رواية السبعة والعشرين حرفاً من العلم تمنح هذا الفصل أفقاً واسعاً، ما عرفه البشر قبل القائم، بكل ما أنتجه من حضارات وعلوم، لا يمثل في صورة الرواية إلا جزءاً محدوداً من أبواب المعرفة، وعندما يقوم الإمام يُبث ما بقي، فتدخل الإنسانية طوراً مختلفاً في فهمها للعالم.

60 مختصر بصائر الدرجات، ص 117 بحسب النسخة المتاحة؛ عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله: «العلم سبعة وعشرون حرفاً...» وأن القائم يظهر ما بقي منها.

أهمية هذا الاتساع أنه ليس ترفاً علمياً، المعرفة الدقيقة شرط للعدل، الإدارة والقضاء والطب والاقتصاد وال عمران والاتصال كلها تتغير حين تتغير كمية العلم ونوعه، لذلك تكون الثورة المهدوية معرفية بقدر ما هي سياسية وأخلاقية، لأن تصحيح العالم يحتاج أولاً إلى كشف ما كان الناس يجهلون.

ومن هنا يلتقي آخر الكتاب بأوله: المنتظر الذي يتدرب على احترام العقل والعلم لا يفعل شيئاً هامشياً، بل يهيئ نفسه لمشروع سيكون العلم من أبرز ملامحه.

وهذا يفسر لماذا تأتي رواية السبعة والعشرين حرفاً في قلب الحديث عن الدولة، لا في باب منفصل عن الحكم، فالعدل لا يمكن أن يعمل بأقصى مداه إذا كانت المعرفة ناقصة، وكل توسع في العلم يفتح للإنسان قدرة أوسع على فهم الواقع واتخاذ القرار وإدارة الموارد، وفي مشروع القائم تصبح المعرفة بنية تحتية للعدل: بها يعرف القاضي، ويخطط المدير، ويعالج الطبيب، ويبني المهندس، ويكتشف المجتمع إمكانات لم تكن متاحة له من قبل.

الفصل الخامس

العلم والحضارة

ولا ينحصر العلم في الأحكام الفقهية وحدها، المشروع المهدوي شامل، والعلم الذي يتسع يدخل في فهم الإنسان للعالم والحياة والخلق، ومن ثم يمكن أن تتغير مجالات الطب والطاقة والاتصال والنقل العمران والإدارة بصورة تتناسب مع دولة عالمية يقودها إمام معصوم.

وعند الحديث عن العلم لا يحصره في مسائل الأحكام، لأن الدولة عالمية وحاجاتها واسعة، من الطبيعي في هذا التصور أن ينعكس انفتاح أبواب المعرفة على الطب والطاقة والنقل والاتصال والزراعة العمران والإدارة، وأن تظهر إمكانات لم تكن البشرية تعرفها قبل ذلك.

وقد مُهّد لهذه الفكرة ببيان أن القوة المعاصرة تبدأ من «المعلومة الصحيحة»، وأن العلم ينتج التكنولوجيا، والتكنولوجيا تحتاج اقتصاداً قوياً، ثم تتحول إلى قدرة سياسية وعسكرية، فإذا كان هذا هو قانون القوة في عالمنا الناقص، فإن اتساع العلم في دولة المعصوم يفتح مجاًلاً لحضارة تختلف جذرياً عن الحضارة التي عرفناها.

وهكذا لا يكون الانتظار حنيناً إلى ماضٍ بسيط، بل توفاً إلى مستقبل تتقدم فيه المعرفة تحت قيادة الحق، والمشروع المهدوي يجمع الدين والعلم، ولا يرى بينها قطيعة.

وحين تتسع «حروف العلم» في زمن القوائم، لا يبقى الأثر داخل الدرس الديني وحده؛ المعرفة إذا اتسعت غيرت أدوات الإنسان في كل مجال: كيف يعالج المرض، وكيف ينتج الطاقة، وكيف ينقل الناس والمعلومة، وكيف يبني المدن ويدير الموارد، ولذلك نتحدث عن حضارة مهدوية لا عن إدارة دينية تقليدية.

والحضارة هنا ليست منافسةً للحضارة الحديثة بأدواتها نفسها فقط، هي ثمرة معرفة أوسع وقيادة معصومة وغاية أخلاقية مختلفة، العلم لا يكون للهيمنة ولا للربح وحده، بل يدخل في خدمة العدل وكرامة الإنسان، من هنا تصبح الثورة المعرفية أساساً لبقية مظاهر الدولة العالمية.

الفصل السادس

تصحيح الموروث

من أصعب مهام الدولة تصحيح ما تراكم في الدين، الشيء إذا عاش عليه الناس قرونًا يصبح جزءًا من الهوية، ولذلك قد يقابلون الأصل نفسه بوصفه أمرًا غريبًا، هنا تظهر مرة أخرى ضرورة معرفة الإمام: من يعرف مقامه يجعل ما يأتي به ميزانًا، ومن يجعل موروثة ميزانًا قد يريد من الإمام أن يوافق صورة صنعها هو.

كلما طال الزمن تراكمت على الدين شروح وعادات ومؤسسات، وصار ما أنتجه البشر جزءًا من الصورة المقدسة في أذهانهم، لذلك فإن عودة الإمام إلى الأصل قد تواجه مقاومة ممن يظنون أن الموروث الذي اعتادوه هو الدين نفسه، هذه الفكرة تشرح مشاهد البترية وما يشبهها بعد الظهور.

التصحيح لا يعني محو التاريخ، بل إعادة الميزان إلى صاحبه، حين يكون الإمام حاضرًا لا يعود الاجتهاد البشري هو المرجع النهائي في مقابل قوله، ولهذا كان على المنتظر أن يدرب نفسه منذ الغيبة على التمييز بين مقام المعصوم ومقام العلماء والقادة، حتى لا تتحول محبته لشخص أو مدرسة إلى عائق عن التسليم.

في هذا المعنى تكون معرفة الإمام أداة لتحرير الدين من الجمود على الصورة الموروثة: الأصل هو ما يبينه صاحب الأمر، وكل ما عداه يُقاس به.

كلما طال الزمن على فكرة أو ممارسة زادت قدرتها على أن تتحول إلى جزء من الهوية، حتى لو لم تكن هي الأصل الذي جاء به أهل البيت عليهم السلام، لذلك يكون تصحيح الموروث من أصعب وظائف القائم، لأن المقاومة هنا قد تصدر من أناس يظنون أنهم يدافعون عن الدين نفسه.

والعلاج الذي يقترحه الكتاب يبدأ قبل الظهور: أن يتعلم المنتظر الفرق بين النص المعصومي وبين فهم البشر للنص، العلماء يُحترمون ويُستفاد منهم، لكنهم لا يحتلون مقام الإمام، إذا استقرت هذه القاعدة صار المؤمن أقدر على استقبال تصحيح الإمام، ولم يجعل ما اعتاده حجاباً بينه وبين الحجة.

الفصل السابع

القوة في خدمة الحق

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾⁽⁶¹⁾

القوة ليست نقيض الرحمة، دولة القائم قوية، لكن القوة فيها في خدمة العدل، العلم قوة، والاقتصاد قوة، والتقنية قوة، والتنظيم قوة، والجيش قوة، الفرق هو لمن تعمل هذه القوة، في النظام الظالم تحمي السلطان ولو على حساب الناس، وفي دولة القائم تحمي الحق وتمنع الظالم من الاعتداء.

ويتضح معنى القوة في عصرنا من نقطة واضحة: أعلى ما في الاقتصاد الحديث هو المعلومة الصحيحة، من المعلومة ينشأ العلم، ومن العلم التكنولوجيا، ومن التكنولوجيا تتولد أدوات الاقتصاد والحرب والإدارة، ولذلك فإن القوة ليست سلاحاً يُشترى في النهاية، بل سلسلة تبدأ من العقل والمعرفة.

هذا الفهم يضيء آية «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة»، الإعداد لا يعني عشق الحرب، بل منع العجز، الدولة التي تريد إقامة العدل تحتاج قدرة تحمي القانون وتمنع المعتدي، وفي الوقت نفسه لا تجعل القوة غاية مستقلة، ويتأكد في أكثر من موضع أن الموقف مع أهل البيت يجمع الحرب مع من يحاربهم والسلم مع من يسالمهم، أي إن القوة منضبطة بالحق وليست اندفاعاً دائماً إلى الصراع.

61 القرآن الكريم، سورة الأنفال، الآية 60.

ولهذا يصبح بناء العلم والاقتصاد والتنظيم من أعمال التمهيد، المجتمع الضعيف في هذه المجالات لا يستطيع أن يحمل مشروعًا عالميًا مهما كانت شعاراته قوية.

ولا تبدأ القوة من السلاح: المعلومة قوة، والعلم قوة، والتقنية قوة، والاقتصاد قوة، والتنظيم قوة، ثم تأتي القوة العسكرية في موضعها، المجتمع الذي يفتقر إلى المعرفة والإنتاج ويعتمد في كل شيء على غيره لا يستطيع أن يحمل مشروعًا عالميًا مهما كانت شعاراته عالية.

ولهذا يختلف إعداد القوة في المشروع المهدوي عن عبادة القوة، الوسائل لا تُقدس لذاتها، قيمتها في الجهة التي تعمل لها، في دولة الظلم قد يكون العلم أداة مراقبة والاقتصاد أداة استغلال والسلاح أداة قهر، أما في دولة القائم فتتنظم هذه القدرات تحت غاية العدل وحماية الحق، هذه هي النقلة التي تبرز هنا.

الفصل الثامن

الدولة العالمية

مشروع القوائم ليس عراقياً ولا عربياً ولا فارسياً، تبدأ الحركة في منطقة محددة لأن الروايات تصف انطلاقها هناك، لكن الغاية أوسع: امتلاء الأرض قسماً وعدلاً، ولهذا تتناسب سعة العلم وإعادة بناء الإنسان والمؤسسات مع مشروع عالمي، لا مع دولة محلية محدودة.

العالمية هنا ليست توسع دولة قومية على حساب غيرها، القوائم ليس قائد مشروع عربي أو فارسي أو عراقي، كل هذه الهويات موجودة داخل منطقة الظهور لكنها لا تحدد غاية الدولة، القيادة للمعصوم، والميزان هو العدل، والإنسان هو موضوع المشروع أينما كان.

ومن هنا نفهم لماذا تبدأ البيعة في مكة: الانطلاق من مركز ديني جامع يمهّد لحركة تتجاوز الحدود التي كانت سائدة قبلها.

عالمية الدولة نتيجة طبيعية لعالمية وظيفة القوائم، صحيح أن الروايات تركز في بدايات الحركة على العراق والشام والحجاز واليمن والمشرق، لكن هذه المنطقة هي موضع الانطلاق لا حدود الغاية، الغاية التي تكررهما الثقافة المهدوية هي امتلاء الأرض قسماً وعدلاً.

ولذلك تحتاج الدولة إلى علم وقدرة وتنظيم يتجاوز ما تحتاجه دولة محلية، إدارة أمم مختلفة ولغات وموارد ومسافات تتطلب مستوى من المعرفة والاتصال والعدالة يجعل البشرية تدخل طوراً جديداً، ومن هنا يتصل هذا

الفصل مباشرة بفصل العلم والحضارة، العالمية لا تتحقق بالشعار، بل ببنية تستطيع حملها.

وعالمية الدولة تفرض بدورها نوعاً مختلفاً من التفكير، إدارة إقليم صغير يمكن أن تقوم على خبرات محدودة، أما مشروع يمتد إلى الأرض فيحتاج شبكات معرفة واتصال وتنظيم واقتصاد تتناسب مع سعته، ولذلك تأتي روايات اتساع العلم والقوة في مكانها الطبيعي داخل هذا الباب، فالعالمية ليست مجرد اتساع للخريطة السياسية، بل اتساع في القدرة على إدارة البشر والموارد وإيصال العدل، وهذا ما يجعل المشروع الحضاري جزءاً أصيلاً من معنى الظهور.

الفصل التاسع

الإنسان يتغير

أعظم ما تبنيه دولة القائم ليس الأبنية وحدها، بل الإنسان، إذا ارتفع العلم ارتفع وعيه، وإذا ظهر الإمام تغير معنى القيادة في حياته، وإذا أقيم العدل تغيرت علاقته بالآخرين، وهكذا ينتقل المؤمن من مجتمع الانتظار إلى مجتمع النصرة، وتصبح المعرفة والمال والمهارة والعمل كلها أدوات خدمة.

«لو أدركت القائم لخدمته أيام حياتي»⁽⁶²⁾

الدولة لا تنجح إذا تغيرت القوانين وبقي الإنسان كما هو، لذلك يقع التحول المعرفي والأخلاقي في قلب المشروع، حين تتسع المعرفة، وتظهر القيادة المعصومة، وتُرفع صور من الظلم، تتغير طريقة الإنسان في النظر إلى نفسه والمال والسلطة والآخرين.

المنتظر الذي كان قبل الظهور يحفظ نفسه ويبني قدرته يصبح بعده ناصراً يستخدم تلك القدرة، العالم، والمهندس، والمربي، والإداري، وصاحب المال، وكل صاحب مهارة يستطيع أن يدخل في شبكة الخدمة، وهكذا تكتسب حياة الانتظار معناها الكامل: ما بناه الإنسان في نفسه لم يكن تدريجياً نظرياً، بل رأس مال لدولة الحق.

62 النعماني، الغيبة، ص 252 تقريباً بحسب الطبعة المتداولة؛ عن الإمام الصادق عليه السلام: «لو أدركته لخدمته أيام حياتي».

أعظم عمارة في هذا التصور هي عمارة الإنسان، لأن الإنسان العادل العارف هو الذي يستطيع أن يحفظ المؤسسات من العودة إلى الظلم.

لا قيمة لدولة عادلة إذا بقي الإنسان في داخله محكوماً بنفس منظومة الجشع والظلم والجهل، ولذلك يصبح بناء الإنسان محوراً لا يقل أهمية عن بناء المؤسسات، المعرفة الجديدة توسع وعيه، والعدل يغير علاقته بالحق والمال والآخرين، وحضور الإمام يغير معنى القيادة والطاعة في نفسه.

وبهذا يلتقي آخر الكتاب بأوله، شخصية المنتظر التي بُنيت على الشوق والصبر والعقل والولاء تتحول بعد الظهور إلى شخصية الناصر، ما كان تدريباً في الغيبة يصبح سلوكاً في الدولة: العلم الذي تعلمه، والمهارة التي أتقنها، والمال الذي حفظه، والخلق الذي ربي نفسه عليه، كلها تدخل في مشروع الإمام.

الفصل العاشر

معنى التمهيد بعد ظهور الإمام

هنا نفهم كل ما سبق: الياني ممدوح لأنه يدعو إلى صاحبكم، والخراساني لأن راياته تنتهي إلى البيعة، وحفظ النفس لأنه يبقي القدرة لصاحب الأمر، وبناء العلم والقوة لأنه يهيئ الإنسان للمشاركة في المشروع، التمهيد الحقيقي هو إعداد الإنسان والمجتمع لتسليم قدراته كلها للإمام حين يظهر.

عندما ننظر من نهاية الطريق إلى بدايته تتضح كلمة «التمهيد»، حفظ النفس كان تمهيداً لأنه أبقي القدرة لصاحب الأمر، تعلم حديث العترة كان تمهيداً لأنه صنع بصيرة وقت الفتنة، بناء العلم والاقتصاد كان تمهيداً لأنه صنع أدوات نافعة، الياني ممدوح لأنه يدعو إلى صاحبكم، والخراساني ممدوح لأن راياته تنتهي إلى البيعة.

إذن التمهيد ليس مشروعاً يكتمل مستقلاً عن الإمام، بل إعداد أشياء ستُسَلَّم إليه: إنسان، ومعرفة، وقوة، وجماعة، ومؤسسة، المهد لا يسأل كيف يبقى مشروعه بعد الظهور، وإنما كيف يصبح مشروعه صالحاً لأن يذوب في مشروع القائم.

بهذا المعنى لا ينتهي التمهيد عند الظهور، يتحول إلى خدمة، وما كان استعداداً في زمن الغيبة يصبح عملاً مباشراً في زمن الحضور.

التمهيد لا ينتهي لأن الإمام ظهر، إنما يتغير اسمه العملي، قبل الظهور كان إعداداً، وبعده يصبح خدمةً ونصرةً وتنفيذاً، الرايات الممهدة تسلم ما

عندها، والأفراد يقدمون قدراتهم، والمجتمع يعيد تنظيم نفسه على أساس قيادة صاحب الأمر.

وهكذا نفهم لماذا انطلق الكتاب من عبارة «لاستبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر»، استبقاء النفس ليس هدفاً في ذاته، بل حفظ أداة للخدمة، فإذا جاء اليوم الذي يظهر فيه صاحب الأمر، يكون ما حُفظ من علم ومال وخبرة ووقت جاهزاً لأن ينتقل من الاستعداد إلى العمل المباشر.

وبهذا يعود مفهوم التمهيد إلى معناه الكامل، قبل الظهور كان التمهيد بناء معرفة وقدرة وحفظاً للنفس وتوجيهاً للناس نحو الإمام، وبعد الظهور يتحول كل ذلك إلى خدمة مباشرة: العلم يوضع بين يديه، والمهارة تعمل في مشروعه، والقوة تحمي دولته، والمال يعين على بناء المجتمع، ومن ثم لا يوجد انفصال بين المنتظر والناصر، الأول يهيئ نفسه للثاني، وكل ما لم يكن قابلاً لأن يُسلم لصاحب الأمر يحتاج إلى مراجعة في معنى التمهيد.

الخاتمة الكبرى

اعرف إمامك... وعزّف بإمامك

خلاصة خارطة الظهور ووظيفة المؤمن

خلاصة الأمر

بعد المرور بالعراق والشام والحجاز واليمن والمشرق، والسفنياني واليمني والحراساني والصيحة والنفس الزكية وخسف البيداء، وبعد الوصول إلى مكة والبيعة والكوفة ودولة القائم، يبقى السؤال الأهم: ما الذي ينبغي أن يبقى في ذهن المؤمن بعد كل هذه التفاصيل؟

«اعرف إمامك... وعرف إمامك»⁽⁶³⁾

هذه العبارة تختصر الرحلة كلها، الغاية ليست أن يخرج الإنسان من دراسة العلامات وهو يعرف أسماء أكثر، بل أن يعرف من ينتظر، وأن يعيش زمن الغيبة مرتبطاً به، وأن ينقل معرفته به إلى الآخرين، العلامات طريق، أما الغاية فهي صاحب العلامات.

ومن هنا تأتي رسالة «اعرف إمامك وعرف إمامك» كصيغة حياة، المعرفة تمنع أن يضيع الإنسان بين الرايات، والتعريف يمنع أن تبقى هذه المعرفة فردية معزولة، وتُقدّم خلاصة هذا المسار بوصفها حجة معرفية ومسؤولية في النقل؛ من عرف شيئاً عن إمامه ووظيفة عصر الغيبة لا ينبغي أن يترك من حوله بلا نصيب من هذه المعرفة.

63 «اعرف إمامك وعرف إمامك» خلاصة منهجية صاغها الشيخ الأستاذ عبدالحليم الغزي في خاتمة السلسلة، وليست رواية مستقلة منسوبة إلى المعصوم عليه السلام.

إن الخلاصة ليست اختصارًا للمعلومات، بل ترتيب لأهميتها: الإمام أولاً، ثم كل ما يعين على الوصول إليه وخدمته.

ولهذا فإن «الخلاصة» لا تلغي التفاصيل التي سبقتها، بل تعيد ترتيبها، من دون التفاصيل قد يجهل المؤمن طبيعة الفتنة، ومن دون الخلاصة قد يغرق في التفاصيل وينسى صاحبها، والغاية هي الجمع بين الأمرين: ذاكرة تعرف الروايات وتتابع الواقع، وقلب يبقى اتجاهه واحدًا نحو الحجة بن الحسن صلوات الله وسلامه عليه، فإذا تحققت هذه المعادلة أصبحت دراسة العلامات جزءًا من العبادة والاستعداد، لا مسابقة في التنبؤ بالأسماء والتواريخ.

الإمام هو الأصل والعلامات طريق إليه

لو حذفنا اسم الإمام من موضوع العلامات لبقيت أماننا قائمة حروب وشخصيات وأصوات يمكن أن توجد في أي كتاب سياسي، الذي يعطيها معناها المهدوي هو صلتها بصاحب الأمر: السفيناني عدو في طريقه، والبياني يدعو إليه، والخراساني يبعث إليه بالبيعة، والصيحة تنادي باسمه، والنفس الزكية رسول قريب من قيامه، والخسف يحمي حركته من جيش متجه نحوه.

لهذا لا ينبغي أن يصبح التعلق بالعلامة أقوى من التعلق بصاحبها، من يعرف كل التفاصيل ولا يعرف معنى الولاية قد يضل عند لحظة الامتحان، بينما من عرف الإمام بصدق يستطيع أن يضع التفاصيل في موضعها الصحيح، العلامة دليل طريق، وليست وطناً يقيم فيه المنتظر.

إذا أعدنا قراءة الكتاب من نهايته سنجد أن كل علامة أخذت قيمتها من قربها أو بعدها عن الإمام، السفيناني مهم لأنه خصم للمشروع، والبياني مهم

لأنه يدعو إلى صاحبكم، والخراساني لأن راياته تنتهي إلى البيعة، والصبيحة لأنها تنادي باسم القائم، والنفس الزكية لأنها رسوله وتسبق قيامه، والخسف لأنه يقع بالجيش المتجه إليه، الإمام هو النقطة التي تجعل هذه التفاصيل خريطة واحدة.

ومن هنا ويبرز التحذير من أن تتحول العلامات إلى شغف مستقل يستهلك العمر في الأساء والخرائط والاحتمالات بينما تضعف صلة الإنسان بصاحب الأمر، المعرفة الصحيحة تعيد كل تفصيل إلى الغاية: هل زادني هذا الحديث معرفةً بإمامي؟ هل جعلني أبصر الفتنة أكثر؟ هل حفظني لخدمته؟

والأصل هنا ليس شعاراً افتتاحياً، بل ميزاناً يمكن تطبيقه على كل باب، إذا تحدثنا عن السفيناني سألنا كيف يقترب بنا فهمه من معرفة عدو المشروع، وإذا تحدثنا عن اليماني سألنا لماذا كانت الدعوة إلى صاحبكم سر هدايته، وإذا تحدثنا عن الصبيحة سألنا كيف تحمي المعرفة السابقة من التضليل، بهذه الطريقة تبقى العلامة في موقعها الصحيح: نافذة على شؤون الإمام لا حاجزاً يحجب الإمام بكثرة تفاصيلها.

معرفة الإمام ليست اسماً ونسباً

معرفة الإمام تشمل مقامه وولايته وحجتيه وشؤون غيبته وظهوره وحديثه وحديث آبائه، وما يريد من شيعته، وهي علاقة وجدانية وعملية أيضاً: محبة وهيبة وشوق وطاعة واستعداد، من يعرف الإمام يجعل حضوره معياراً في حياته حتى وهو غائب عن المشاهدة العامة.

الاسم والنسب باب المعرفة لا نهايتها، وتشمل المعرفة التي عرضها الشيخ الأستاذ عبدالحليم الغزي المقام والحجية والولاية، وشؤون الغيبة

والظهور، وطريقة أهل البيت في تربية شيعتهم، والميزان الذي يقدم عند تعارض الولاءات البشرية، وهي معرفة عقلية ووجدانية في الوقت نفسه؛ فالعلم بها يولد هبةً ومحبّةً وشوقاً وطاعة.

وحين تصبح هذه المعرفة حاضرة، لا يعود الإمام شخصية مؤجلة إلى المستقبل، يدخل في قرارات الحاضر: ما الذي أتعلّمه؟ لمن أمنح ولائي؟ أين أضع قوتي؟ كيف أربي أولادي؟ ما الراية التي لا أسمح لها أن تراحم بيعته؟ بهذا يتحول «اعرف إمامك» من عنوان عقائدي إلى طريقة عيش.

يمكن للإنسان أن يحفظ اسم الإمام وآبائه وتاريخ ولادته ويبقى بعيداً عن المعرفة المقصودة هنا، المعرفة هنا أن يدرك أن الإمام حجة الله في زمانه، وأن طاعته مقدمة على كل قيادة بشرية، وأن غيبته لا تسقط ولايته، وأن حديثه وحديث آبائه هو الميزان الذي تُقرأ به الرايات والأحداث.

ولهذا كانت مشكلة البتيرية في آخر الطريق أنهم عرفوا النسب ولم يسلموا للمقام، هذه الصورة تجعل الخاتمة عودة إلى الدرس الأول: ما ينفع عند الظهور ليس معلومات الهوية وحدها، بل علاقة ولاء تجعل الإنسان مستعداً لأن يغير كل ما عنده إذا جاء أمر الإمام بخلاف ما ألف.

ولذلك قد يعرف الإنسان تاريخ الولادة والنسب والألقاب ثم يبقى ضعيف الصلة بالإمام في قراره اليومي، المعرفة المقصودة هنا تبدأ من المعلومة لكنها لا تقف عندها، تنتقل إلى معرفة الولاية والطاعة وما يريده أهل البيت من المؤمن في زمن الغيبة، وكلما نمت هذه المعرفة تغير سلوك الإنسان: يصبح أكثر تحفظاً على نفسه، وأكثر دقة في اختيار رايته، وأشد شوقاً إلى الخدمة، وأقدر على تعريف من حوله بالإمام بوصفه حاضراً في الدين لا اسماً مؤجلاً إلى المستقبل.

احفظ نفسك لصاحب هذا الأمر

«أما إني لو أدركت ذلك لاستبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر»⁽⁶⁴⁾

النفس والعمر والعقل والقدرة رأس مال، لا تجعل حياتك ميداناً لتجربة كل راية، ولا تهدر قوتك في خصومات لا تقربك من الإمام، حفظ النفس ليس انسحاباً من الحياة، بل توجيهها نحو المشروع الذي تعرف صاحبه.

بعد رحلة الكتاب يمكن قراءة «استبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر» بمعنى أوسع من البداية، لقد رأينا رايات مشتبهة، وقتالاً على سواء، وصاحب برقع، وفتناً تضغط على الناس، كل هذه المشاهد تشرح لماذا كانت النفس أمانة لا تُدفع بلا بصيرة.

وحفظ النفس لا يعني حفظها من الموت فقط، احفظ عقلها من التضليل، ودينها من الولاءات المتعارضة، ووقتها من الاستنزاف، ومالها من العبث، وقدرتها من أن تُستهلك في مشروع لا يصل إلى الإمام، إن ما تحفظه اليوم قد يصبح غداً أداة خدمة بين يديه، وهذا هو المعنى الإيجابي للاستبقاء.

الاستبقاء الذي تحدث عنه الإمام الباقر عليه السلام يعطي للانتظار معنى حفظ رأس المال، العمر لا يتكرر، والطاقة لا تبقى بلا نهاية، والإنسان قد يستنزف نفسه في صراعات ورايات ثم يصل إلى لحظة الحاجة وقد فقد ما كان يستطيع أن يقدمه، لذلك يصبح حفظ النفس جزءاً من التمهيد.

64 النعماني، الغيبة، ص 281 تقريباً بحسب طبعة أنوار الهدى، ح 50؛ عن أبي خالد الكابلي، عن الإمام الباقر عليه السلام، وفي آخره: «أما إني لو أدركت ذلك لاستبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر».

لكن الحفظ لا يعني الانسحاب من المجتمع، المقصود أن لا تُستهلك النفس بلا ميزان، وأن تُبنى قدراتها بدل أن تُبدد، يتعلم الإنسان ويعمل ويربي ويكسب الخبرة ويخدم الناس، لكنه يبقى وجهته واضحة: كل ما يبنيه ينبغي أن يكون صالحاً لأن يُوضع يوماً ما في يد صاحب الأمر.

وحفظ النفس بهذا المعنى ليس خوفاً على الحياة لذاتها، بل حفظ للأمانة، الإنسان الذي يملك علماً أو خبرة أو مალأ أو قدرة اجتماعية يحمل أدوات يمكن أن تكون نافعة لصاحب الأمر، فلا يبددها في صراعات لا يعرف نهايتها، ومن هنا يلتقي حديث «استبقيت نفسي» مع فكرة بناء القوة: الاستبقاء لا يعني أن يبقى المرء كما هو، بل أن يزيد ما عنده قيمة حتى إذا جاء وقت النصر كان عنده شيء حقيقي يقدمه.

الانتظار ليس فراغاً

الانتظار معرفة وشوق وصبر وتربية وعمل وبناء قدرة، إذا كانت خدمة القائم أمنية، فالسؤال العملي اليوم: ماذا أستطيع أن أهيئ لخدمته؟ علماً، ومهارة، وأخلاقاً، وأسرة تعرف إمامها، وقدرة اقتصادية أو تقنية أو إدارية نافعة.

من يتصور الانتظار جلوساً حتى تأتي العلامة يفوت أهم مرحلة من عمره، الغيبة هي زمن التكوين: يتعلم فيه، ويربي، ويصبر، ويبني علاقته بالإمام، ويهيئ قدرته العلمية والاقتصادية والاجتماعية، وحين تأتي العلامات يكون قد أصبح شخصاً آخر، قادراً على قراءة الحدث بدل أن يتلعه الحدث.

ولهذا كان «لو أدركت القائم لخدمته أيام حياتي» من أكثر العبارات انسجاماً مع روح الكتاب، الخدمة أمنية المستقبل، لكنها تبدأ بإعداد أدواتها

في الحاضر، لا يعرف أحد أي نوع من الخدمة سيحتاجه المشروع، ومن هنا تكون كل مهارة نافعة وكل خلق ثابت وكل معرفة صحيحة جزءاً محتملاً من الاستعداد.

الانتظار الذي يقدمه هذا الكتاب ممتلئ بالفعل: معرفة، ودعاء، وتربية، وتدبر، ومتابعة للزمان، وبناء للقوة النافعة، لا يحتاج المؤمن إلى علامة كبرى حتى يبدأ، لأن خدمة الإمام في الغيبة تبدأ بما يستطيع أن يفعله اليوم، لهذا لا يكون طول الطريق سبباً للبرودة، بل مساحة للعمل.

وإذا قصر الإنسان الانتظار على متابعة الأخبار، أصبح مزاجه تابعاً لما يظهر في الشاشات: يفرح بتشابه ثم ينهار إذا لم يكتمل، أما حين يكون الانتظار برنامج حياة، فإن الأمل يبقى قوياً سواء اقتربت العلامات في تقديره أم ابتعدت، لأنه في الحالتين يعيش مع الإمام لا مع التاريخ وحده.

ولهذا يمكن قياس صدق الانتظار بما ينتجه في اليوم العادي قبل أي علامة كبرى، هل جعل الإنسان أكثر معرفة؟ هل أصلح علاقته بأهله؟ هل تعلم مهارة نافعة؟ هل صار أقدر على التمييز بين الخبر والدعاية؟ هل حفظ ماله ووقته من الضياع؟ هذه الأعمال قد تبدو بعيدة عن مشاهد الرايات والجيوش، لكنها هي ما يصنع به المنتظر نفسه، الظهور يحتاج إنساناً جاهزاً، والجاهزية لا تُكتسب في ليلة واحدة.

عرّف بإمامك

إذا كانت «اعرف إمامك» تبني الداخل، فإن «عرّف بإمامك» تنقل المعرفة إلى الأسرة والصديق والبيئة، التعريف الحقيقي لا يقوم على القصص الغريبة،

بل على أن يعرف الناس من هو إمام زمانهم، وما معنى وجوده، وكيف تكون علاقتهم به، ولماذا لا تكون الغيبة سبباً لنسيانه.

التعريف بالإمام لا يعني ملء المجالس بالتوقعات، بل تقديم صاحب الأمر نفسه: من هو، وما معنى إمامته، ولماذا لا تنقطع الصلة به في الغيبة، وكيف تقود معرفته إلى الطاعة، فإذا تأسست هذه المعرفة صار الحديث عن العلامات مفيداً، لأنها تأتي في سياق يعرف القارئ غايته.

والبداية الأقرب هي الأسرة، أن يعرف الأبناء إمام زمانهم، وأن يتعلموا بعض حديثه وحديث آبائه، وأن يرتبطوا به بالدعاء والشوق، يصنع جيلاً لا يبدأ من الصفر إذا دخل زمن الفتنة، ثم تتسع دائرة التعريف إلى الصديق والمجتمع بحسب قدرة الإنسان، بلغة هادئة تفتح القلب والعقل ولا تحول القضية إلى خصومة.

في هذا المعنى يصبح الكتاب نفسه محاولةً في «عرّف بإمامك»: خارطة تقود القارئ عبر الأحداث حتى لا ينسى صاحبها.

التعريف بالإمام هو الوجه الاجتماعي للمعرفة، ما يعرفه المؤمن عن حجة زمانه لا ينبغي أن يبقى محصوراً في ذاته، بل ينتقل إلى الأسرة والأبناء والأصدقاء بقدر ما يستطيع، وليس المقصود إغراق الناس في التفاصيل المعقدة، وإنما أن يعرفوا أولاً من هو صاحب الأمر ولماذا وجوده حاضر في دينهم حتى في زمن الغيبة.

وحين تُبنى هذه المعرفة في جيل بعد جيل تصبح الروايات نفسها أكثر نفعاً، الطفل الذي ينشأ وهو يعرف إمامه سيكون حين يكبر أقدر على فهم معنى

الياني والصيحة والنفس الزكية من شخص لا يبدأ التفكير في الإمام إلا عند انتشار خبر مثير، بهذا المعنى يصبح التعريف جزءاً من صناعة مجتمع منتظر.

برنامج حياة

- اعرف إمامك: تعلم حديث محمد وآل محمد عليهم السلام وما يرتبط بالحجة وشؤون غيبته وظهوره.
- عرّف بإمامك: انقل المعرفة إلى أسرتك ومن تستطيع الوصول إليه.
- احفظ نفسك: لا تجعل حياتك وقوداً لرأية لا تعرف وجهتها.
- كن بصيراً بزمانك: تابع الأحداث، لكن لا تجعل الأخبار بديلاً عن حديث العترة.
- ابن قوتك: علماً ومهارةً وأخلاقاً وقدرةً وتنظيماً.
- ابق مشتاقاً إلى الفرج: من غير توقيت، ومن غير أن يتحول طول الطريق إلى برودة في القلب.

إذا أردنا تحويل الخلاصة إلى ممارسة يومية فالمطلوب ليس عشرات الأعمال الغامضة، ابدأ بمعرفة مستمرة: وقت للقرآن وحديث العترة وشؤون الإمام، ثم اجعل لك نصيباً من الدعاء والشوق حتى لا تتحول المعرفة إلى معلومات باردة، راقب ولاءاتك: لا تمنح أحداً في قلبك مقاماً يزاحم بيعة صاحب الأمر، وابن مهارة نافعة تستطيع بها خدمة الناس والمشروع.

وتابع الأحداث، لكن بقدر يخدم البصيرة لا بقدر يستنزف النفس، الأخبار وسيلة لفهم الزمن وليست ديناً جديداً، حين ترى اضطراباً لا تتعجل إسقاط الروايات، وحين تسمع دعوى لا تجعل الشهرة دليلاً، وحين يشتد الضغط لا تتخل عن الميزان الذي بنيته في زمن الهدوء.

بهذا يصبح الانتظار روتيناً هادئاً طويل النفس: معرفة، ودعاء، وتربية، وعمل، وإعداد، وتعريف، وهو برنامج يمكن أن يعيش به الإنسان سواء أدرك الظهور أم لم يدركه.

وهذه ليست قائمة تُنجز مرة واحدة، بل دورة مستمرة: معرفة تتجدد، وتعريف يتسع، ونفس تُحفظ، وبصيرة تُختبر أمام الأحداث، وقوة تُبنى، وشوق يبقى حياً من غير توقيت، وكل عنصر يقوي الآخر، فالمعرفة بلا عمل تجف، والعمل بلا معرفة قد يضل الطريق، والقوة بلا إمام قد تتحول إلى مشروع مستقل، أما حين تجتمع كلها حول صاحب الأمر فإن الانتظار يصبح أسلوب حياة لا موسماً عاطفياً عابراً.

إذا لم ندرك الظهور

إذا عرف المؤمن إمامه وعاش على ولايته وربى أبناءه على معرفته وخدم مشروعه بما يستطيع، فإنه لم يضيّع عمره، ولو لم يدرك يوم الظهور بعينه، هو لم يكن ينتظر تاريخاً، بل كان ينتظر الإمام، فإن جاء الظهور في حياته كان قد أعد نفسه، وإن جاء بعده ترك وراءه من يعرف صاحب الأمر.

الانتظار المرتبط بالإمام لا ينهار إذا انتهى عمر الفرد قبل يوم الظهور، لأن ثمرته لم تكن معلقة على مشاهدة الحدث فقط، الإنسان الذي عرف إمامه وأصلح نفسه وربى أسرته وبنى قدرة نافعة عاش عمره في اتجاه صحيح، حتى لو جاءت المرحلة الأخيرة بعده.

ثم إن أثره لا ينتهي بموته، قد يترك أبناء يعرفون الإمام، أو علماً نافعاً، أو مؤسسة صالحة، أو كلمة هدت إنساناً إلى صاحب الأمر، بهذا تتحول

الأجيال إلى سلسلة تمهيد، ويحمل اللاحق ما بناه السابق، انتظار الفرد قصير بعمره، أما انتظار الجماعة المؤمنة فيمتد عبر الأجيال.

ولا ترتبط قيمة العمل مرتبطة بشرط أن يرى الإنسان الظهور بعينه، من عاش عمره يعرف إمامه ويخدم مشروعه ويعرف به فقد عاش في الاتجاه الصحيح حتى لو انتهى أجله قبل رجب العلامات، لأن الغاية لم تكن النجاة من فضول المستقبل، بل الوفاء لإمام الزمان.

وهذا المعنى يحجر المؤمن من القلق الذي قد يصاحب سؤال «هل سندرك؟»، السؤال الأهم يصبح: كيف نعيش ما بقي لنا؟ فإن أدرك الإنسان الظهور وجد نفسه قد تهيأ، وإن لم يدركه ترك أبناء ومعرفةً وأثرًا يمضي في الطريق نفسه، وهكذا يستمر الانتظار عبر الأجيال من غير أن يفقد حيويته.

كلمة أخيرة إلى القارئ

أنت الآن عند آخر صفحة من خارطة بدأت بالغيبة وانتهت بدولة القائم، فلا تجعل آخر ما يبقى في ذهنك أسماء العلامات، بل اسم إمامك، لا تقل: حين يخرج السفيناني سأبدأ، أو حين أسمع الصيحة سأتعلم، أو حين يقترب الظهور سأستعد، إن كنت تنتظره حقًا فابدأ الآن: اعرفه، تعلم حديث آبائه، أصلح نفسك، ابن قدرتك، وعرف أولادك به.

فقد يكون أعظم تمهيد يستطيع الإنسان القيام به هو أن لا يسمح لعصر الغيبة أن يجعله غائبًا عن إمامه.

حين تغلق هذا الكتاب لا نريد أن يكون أول ما تستحضره خريطة حدود أو اسم شخصية، تذكر الميزان الذي تكرر في كل الأبواب: اعرف صاحب

الأمر أولاً، إذا ثبت هذا المركز، أمكنك أن تدرس السفيناني من غير أن يسرق قلبك الخوف، وأن تتابع الرايات من غير أن تسلم نفسك لها، وأن تنتظر الصبيحة من غير أن تؤجل معرفتك إلى يومها.

ابدأ بما تستطيع الآن، صفحة تتعلم منها حديثاً، مجلس تعرف فيه أبناءك بإمامهم، مهارة تتقنها، خلق تصلحه، ولاء تنقيه، دعاء تلتزم به، التمهيد الكبير يُبنى من أعمال صغيرة صادقة إذا كانت وجهتها صحيحة.

وعندما تقول إنك منتظر، اجعل للكلمة أثراً في حياتك، لأن أجمل خاتمة لخارطة الظهور أن تبدأ بعدها خارطة عملك أنت.

بعد هذه الرحلة لا ينبغي أن يغلق القارئ الكتاب وهو يحمل في ذهنه صورة السفيناني أكثر من صورة إمامه، الغاية من خارطة أن تقود إلى صاحبها، لذلك فإن أول خطوة بعد الصفحة الأخيرة ليست البحث عن خبر جديد، بل مراجعة العلاقة بالحجة: ماذا أعرف عنه؟ ماذا قرأت من حديث آبائه؟ وما الذي تغير في حياتي بسبب انتظاري له؟

إذا خرج الكتاب بسؤال عملي واحد فليكن: ماذا أستطيع أن أهيئ؟ قد يكون علماً أو خلقاً أو أسرة أو مالاً أو مهنة أو قدرة على التعليم والتنظيم، لا أحد يعرف صورة الخدمة التي ستطلب منه، لكن كل إنسان يعرف أن العمر الذي ينفقه في البناء أقرب إلى صاحب الأمر من عمر يضيع في الترقب وحده.

دعاء الختام

اللهم عرّفني حجتك، فإنك إن لم تعرّفني حجتك ضللت عن ديني، اللهم كن لوليّك الحجة بن الحسن، صلواتك عليه وعلى آبائه، في هذه الساعة وفي كل ساعة، ولياً وحافظاً، وقائداً وناصراً، ودليلاً وعيناً، حتى تسكنه أرضك طوعاً وتمتعه فيها طويلاً.

اللهم اجعلنا من العارفين به، والثابتين على ولايته، والعاملين في طاعته، والمستعدين لخدمته، واجعل معرفتنا به معرفةً تقود إلى العمل، وانتظارنا له انتظاراً يصنع الاستعداد، وشوقنا إليه شوقاً يزيدنا قرباً من طاعته.

منتظرٌ لأمركم

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي.
- النعماني، محمد بن إبراهيم، الغيبة.
- الطوسي، محمد بن الحسن، الغيبة.
- الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، كمال الدين وتمام النعمة.
- المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، الإرشاد.
- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار.
- الطبري الإمامي، محمد بن جرير، دلائل الإمامة.
- الصدوق، من لا يحضره الفقيه.
- نهج البلاغة.
- مختصر بصائر الدرجات.
- نعيم بن حماد، كتاب الفتن؛ في المواضع التي استشهد بها الشيخ ضمن المقارنة.
- محاضرات الشيخ الأستاذ عبدالحليم الغزي في سلسلة علامات الظهور والمواد المتصلة بها، وهي المادة الأساس التي أعيدت صياغتها في هذا الكتاب.

